حديقتي قد غصّت بالمخلفات والنفايات فقد بعثت بطلب عاملين إثنين من (پونتي ڤيكيو[٧٢] Ponti Vecchio) لإزالتها. وكان أحدهما شيخاً فوق الستين من العمر وثانيهما شاباً في الثامنة عشرة. وبعد مضي ثلاثة أيام على وجودهما قال لي الشاب ان الرجل المسنّ لا رغبة له في العمل ومن الخير لي أن أسرّحه. فهو فضلاً عن كسله وتقاعسه يمنعه (أي رفيقه هذا) عن القيام بقسطه من العمل، وأضاف يقول ان القليل المتبقي لديهم سيقوم به هو وحده ولاحاجة بي الى تبديد مالي.

لما وجدت في هذا الشاب وكان يدعى (برناردينو مانيلليني) من (موجللي) إستعداداً للعمل وتفانياً سألته هل يرغب في البقاء عندي وفي خدمتي وإتفقنا فوراً. وكان من واجباته العناية بحصاني. ورعاية الحديقة. ثم مالبث أن ألمّ بصناعتي وصار يساعدني فيها وبدء بالتدريج يحذق الفن ويزاوله بشكل فيه إتقان واناقة. ففاق بذلك كل مساعديّ السابقين. وقرّ رأي أن أكتفي به مساعداً. وبدأت أثبت للدوق كذب (باندنللو) بتقدم عملي بشكل مرضيّ جداً دون أن تلجئني الحاجة الى صُنّاعه.

في تلك الأثناء شعرت بآلام في كليتيّ أعجزتني عن العمل. لكن كان من دواعي سروري العظيم تمضية أوقاتي في حجرة الثياب بقصر الدوق مع شابين صائغين هما (جيانباگولو) و(دومينيكو) إبني (پوچيني). وقد زينت لهما صياغة أناء ذهبي صغير مزدان بنقوش بارزة ذي تهاويل جميلة أوصت الدوقة به لشرب الماء. كما طلب منيّ صياغة نطاق ذهبي هو الآخر كثير النقوش مكفّت بعدد كبير من الأحجار الكريمة. وسائر التهاويل كالأقنعة الصغيرة فأنجزته. وإعتاد الدوق القدوم الى حجرة الثياب بين دقيقة وأخرى. إذ كان يجني أعظم اللذة من مراقبتنا ونحن نشتغل فيما هو يبادلني الحديث.

بعد أن طرأ تحسن على كليتيّ طلبت مقداراً من الصلصال وفي أثناء قضاء الدوق وقتاً في صحبتنا قمت بعمل نموذج لرأسه أكبر بكثير من حجمه الطبيعيّ، فسُرّ سروراً عظيماً بمجهودي هذا وزاد تعلقه بي. وقال إنه ليكون جدّ سعيد لو أمكن نقل مصنعي الى القصر، وفي هذه الحالة سينظر في إخلاء جناح واسع لي هناك وسيكون عليّ أن أنقل مسابكي ومصاهري وكل ما أنا في حاجة إليه لأنه يجد متعة كبيرة في متابعة هذه الأمور. فقلت لسموّه إن هذا غير ممكن اذ انه يعني بأني لن أفرغ من أعمالي بعد مائة سنة.

راحت الدوقة تغمرني بعطفها وإلتفاتها. وكانت تودّ لو أني تفرغت بكليتي لأشغالها الخاصة وعدم الإنشغال بـ(پرسيوس) أو ما أشبه. لكني كنت أحسّ كلما أنعمت النظر في هذا العطف والحظوة- بأن نكد طالعي المعاند لن يتأخر في تسديد ضربة لي أو إبتلائي بمصائب جديدة. وكنت على الدوام مدركاً كم أسأت التصرف متوهماً بأني أحسن التصرف على خير ما يكون- وإني أشير بهذا الى خدمتي في فرنسا.

لم يكن بوسع الملك أن يتغاضى عن الإهانة التي ألحقها به رحيلي عنه. ومع هذا فقد كان يتمنىّ عودتي شريطة أن لايخلّ ذلك بكرامته. وأما من جهتي فقد كنت أرى الحق بجانبي، لأني لم أشأ

(٧٢) أى "الجسر العتيق"، وهو حي من أحياء فلورنسا.

إذلال نفسي. كنت مقتنعاً بأني لو تنازلت الى الحدّ الذي أقوم فيه بكتابة رسالة إستغفار وتصاغر فإن أولئك الناس وهم لا أبا لك فرنسيون! سيقولون إنه أقرّ بالذنوب التي إقترفها. وإن تلك التصرفات المأفونة الحقيرة التي إتهمت بها هي صحيحة. لذا بقيت محافظاً على كرامتي متمسكاً بعزّة نفسي. ورحت أكتب بأسلوب لايخلو من الإعتزاز بكرامة الرجل الذي يدري إنه على حق. ولم يكن ثمّ مايدخل السرور في نفس ذينك المساعدين الخبيثين أكثر من موقفي هذا.

كتبت لهما مشيداً بالإكرام والعطف الكبير الذي ألقاه في مسقط رأسي من السيد والسيدة اللذين هما الحاكمان المطلقان لمدينة فلورنسا حيث ولدت، وكانا كلّما تسلما رسالة من هذا القبيل يهرعان الى الملك ويرجوان منه أن يمنحهما القلعة كما فعل معي لكن الملك وهو من أنبل المخلوقات وأرفعها فضائل يأبى أن يلبيّ طلب هذين اللصيّن الكبيرين اللذين لايفتآن يلحان عليه بكلّ صفاقة. فقد بدء يتحسس نياتهما الشريرة، إلاّ أنه رغبة منه في عودتي ودفعاً لإلحاحهما وتهدئة لخاطرهما، كلّف السيد (گويليانو بوناكوزي) المواطن الفلورنسي أحد أمناء سرّه بأن يكتب لي رسالة جافة يلوح فيها الغضب وكان محتواها كالآتي:

قال: إن شئت المحافظة على سمعتي بإعتباري رجلاً مستقيماً ولكوني رحلتُ دون سبب فالواجب يقتضيني أن أقدم حساباً بكلّ ما قدمت به لجلالته من أعمال."

شاع في نفسي إرتياح عظيم بتسلم هذا الخطاب ولو كان لي فيه خيارٌ لما أبدلت فيه حرفاً. جلست لأكتب ردّي وسوّدت تسع صفحات من الورق الإعتيادي. فأوردت بتفاصيل دقيقة مسهبة حساباً بكلّ ما صنعته وكلّ ما جرى لي من الأحداث أثناء عملي، وأثبتّ مقدار الأموال التي أنفقتها وكيف إني كنت أتسلم مايدفع لي دائماً عن طريق مسجلي عقود إثنين وواحد من أمناء خزانة جلالته وكيف إني كنت دائماً آخذ وصلاً موقّعاً بالتسلم من الأفراد الذين كنت أدفع لهم مقابل بضاعة لهم أو أجور عن عملهم. وأما عن نفسي فإني لم أضع في جيبي قطعة نقود واحدة. كما إني لم أُمنح شيئاً لقاء ما أنجزت من أعمال وكل ما أخذته عند رحيلي الى إيطاليا هو بعض دلائل العطف والحظوة وبعض الوعود الملكية الجديرة بجلالته.

ومضيت أقول: لا أستطيع الإدعاء بأني نلت أي مكافأة عن أعمالي خلال المرتبات التي أمر بها جلالته لمعيشتي. وبخصوص هذه المرتبات فإني ما زلت صاحب حقٍ في أكثر من سبعمائة كراون ذهبي كانت قد تخلفت لي في فرنسا لغرض إرسالها حتى أستعين بها على العودة. ولقد علمت أن بعضاً من ذوي النفوس الشريرة. سعوا بي وشوّهوا سمعتي. لكني أقول: إن الحق يعلو دائماً. إنّي وجدت عزّتي وإرتفاع قدري عند جلالة الملك المسيحي الأعظم. ولم يكن رائدي في خدمته الحرص والطمع.

وقلت أيضاً: مع إدراكي بأني أنجزت لجلالته أشغالاً أكثر بكثير مما تعهدت له، ومع أن المكافأة التي وعدت بها لم تُصرف لي. فإن رغبتي الوحيدة في هذه الحياة هي الإحتفاظ برضا جلالته ورجائي أن ينظر اليّ كما ينظر الى إنسان شريف مستقيم كما كنتُ ومازلتُ. وإن ساور جلالته أى شك فيما أقول فإني سأعود لدى أقل إشارة منه على أجنحة البرق لأقدّم له حساباً عن نفسي ولن يحول بيني

وبين ذلك مخاطرتي بحياتي. اني زهدت في العودة وتقديم نفسي للخدمة بسبب الإهمال الذي لقيته. ولعلمي بأني قادر على الحصول على خبز يومي أينما كنت. على أية حال فإني لن أتردد قطّ في العودة إذا ما أرسل بطلبي. وضمنت الرسالة أموراً وتفاصيل أخرى كثيرة جديرة بمطالعة ذلك الملك الشهم الرائع- منتصفاً فيها لشرفي وكرامتي. وبعد فراغي منها أخذتها الي الدوق وسرّ بمطالعتها. ثم ختمها وبعث بها تواً الى فرنسا معنونةً الى كردينال (فِرارا).

في ذلك الحين كان (برناردو بالديني Bernardo Baldini) وكيل سموّه في شراء الأحجار الكريمة- يمتلك ألماسة كبيرة الحجم يزيد وزنها على خمسة وثلاثين قيراطاً جاء بها من مدينة البندقية. وكان (أنطونيو دي ڤيتوريو لاندي Antonio di Vittorio Landi) مهتماً أيضاً بحمل الدوق على شراء هذه الألماسة. ثمّ قطع الألماسة وصقلها فتبيّن انها تفتقر الى ذلك الصفاء والبريق المشع المتوقع في أمثالها. فأزال مالكوها رأسها الحاد. لكنها لم تستقم لا بالقطع العرضاني ولا بالقطع الحادّ. والدوق الذي كان شديد الشغف بالأحجار الكريمة من غير دراية بقيمتها مهما كانت أعطى (برناردو) ذلك المحتال كلّ سبب للإعتقاد بأنه راغب فيها. ولما كان (برناردو) يريد أن يحتفظ لنفسه بشرف إرتكاب عملية النصب والإحتيال على دوق فلورنسا، فإنه لم يسرّ بكلمة واحدة عن نيته هذه لشريكه (انطونيو لاندي).

كان (انطونيو لاندي) هذا من أعز الأصدقاء على نفسي ربطتنا أيام الصبا علاقة حميمة لاتنفصم. ولما كان على علم بعلاقتي مع الدوق، فقد إستوقفني وإنزوى بي يوماً في زاوية من السوق الجديد وكان الوقت ظهراً تقريباً، قال لي:

- أي بنڤنوتو. لاأشك في أن الدوق سيعرض عليك ألماسة قد يرغب في شرائها. إنها ألماسة كبيرة الحجم وعليك أن تساعدنا في إتمام الصفقة. وأريد أن أقول لك بأني سأوافق على بيعها بمبلغ سبعة عشر ألف كراون. وأنا على ثقة بأن الدوق سيطلب منك رأيك فيها. فإن وجدته حريصاً على إقتنائها فإني سأتخذ التدابير لإتمام الصفقة.

كان يبدو في غاية الإطمئنان من نجاحه في بيعها. فوعدته بأني سأقول فيها ما أعتقده حقاً في حالة عرضها عليّ وإستمزاج رأيي فيها ولن أبخس من قيمتها مطلقاً.

وكما سبق لي القول إعتاد الدوق الحضور يومياً الى دكان الصياغة والمكوث عدة ساعات. فبعد مرور أكثر من أسبوع على حديثي مع (أنطونيو لاندي) عرض عليّ الدوق يوماً الألماسة فعرفتها من الأوصاف التي زودني بها (أنطونيو) حول شكلها ووزنها. وكما ذكرت آنفاً لما كان ماؤها عكراً (وهو السبب الذي حدا بهم الى قطع رأسها المدبّب) فقد كنت سأنصح بالتأكيد بعدم شرائها حال عرضها عليّ. ولذا سألت سموّه بعد أن أرانيها- ماذا يريد مني قوله؟ لأن الأمر يختلف بين ما إذا طلب من الجوهري تقويم حجر كريم بعد أن أبتيع وبين ما إذا طلب منه التقدير قبل تمام البيع ليرى الراغب رأيه على ضوء ذلك.

أجاب الدوق إنه في الواقع قد إبتاعها وهو يريد مني إبداء رأيي فحسب. فلم يسعني إلاّ الإشارة من طرف خفيّ ملمحاً بأني لا أنزلها تلك المنزلة الكبيرة. فقال بأن عليّ أن ألاحظ جمال حواف الألماسة

الطويلة. فأجبت قائلاً: إنها ليست بالجمال الفائق الذي يتصوره سموّه. وإن مايراه من جمال بسبب حوافها الطويلة إنما كان نتيجة لقطع الرأس المدبّب من الألماسة. عند إدلائي بالحقيقة إكفهرّ وجه الدوق وقد أدرك صحة رأيي، فطلب مني الإستمرار في تقويمي وأن أخبره كم تسوى؟

وازنت الأمر في فكري: إذا كان (أنطونيو لاندي) قد عرض عليّ سبعة عشر ألف كراون ، فلابد أن الدوق قد إبتاعها بخمسة عشر ألفاً على أكثر تقدير. وبما أنه تبين لي بأنه لم يرتَح عندما أصدقته الخبر عنها وصارحته بالحقيقة. فقد إرتأيت إبقاءه على وهمه وأنا أعيد الألماسة إليه:

- لعلك دفعت ثمانية عشر ألفاً؟

فهتف مستنكراً وخرج حرف الـ(O) من فمه بشكل أكبر من فتحة البئر.

وقال معقباً:

- الآن تأكدت بأنك غير ملّمٍ بهذه الأمور.

قلت:

- أخشى أن يكون إعتقادك خاطئاً ياصاحب السموّ. أنت تهتم بالإبقاء على حسن سمعة أحجارك الكريمة. وأنا سأهتم بتفهم هذه الأمور، فقل لي كم دفعت ثمناً بها حتى أتعلم كيف أفهم الأمور على ضوء خبرة سموّك.

فنهض تاركاً مجلسه وقال بصوت المزدري الهازيء:

- كلفتني خمسة وعشرين ألف كراون، بل وأكثر يا پنڤنوتو...

ثم خرج.

كان الصائغان (جيانباگولو) و(دومينيكو) ولدا (پوچيني) حاضرين أثناء الحدث. وكان المطرِّز (پاكياكا) يشتغل في الغرفة المجاورة ولما سمع الضجة أقبل هو الآخر وإنضم إلينا.

قلت للحاضرين:

- ما كنت لأنصحه قطّ بشرائها. لكن لا مناص مادامت رغبته فيها شديدة والأمر لديه سواء. فقبل أسبوع عرضها عليّ (أنطونيو لاندي) بمبلغ سبعة عشر ألفاً وأعتقد إني كنت سأقنعه بخمسة عشر ألفاً أو أقل. لكن الدوق يقصد المحافظة على سمعة مجموعته من الأحجار الكريمة حسب إعتقادي. بعد أن عرضها عليّ (أنطونيو لاندي) بهذه القيمة، كيف سوّل الشيطان لنفس (برناردو) القيام بمثل هذا الإحتيال القذر؟

وتحولنا عن سذاجة الدوق بضحكةٍ، غير مصدقين بأن ذلك ممكن.

كما قلت كنت قد بدأت العمل في (ميدوسا) فصنعت هيكلاً جديداً غطيته بالصلصال بتقاسيم جسدية دقيقة بسماكة نصف إصبع ثم طبخته طبخاً تاماً. ثم كسوته بالشمع وإنتهيت منه بالشكل الذي أردته. وكان الدوق دائم التردد اليّ لمشاهدته غير مخفٍ قلقه من أن لا أوفق في صبّه بالبرونز. ودفعه ذلك الى الإقتراح عليّ بأن أستعين بخبير. في تلك الأثناء كان سموّه يلهج بمهارتي الفنيّة

ويتحدث عنها بإعجاب كبير، في حين تفتق ذهن وكيل خرجه - وهو يتحين الفرص ليوقع بي ويدق عنقي- عن حيلة للوصول الى مرامه. كانت سلطته تمتد لتشمل ضباط الشرطة وجميع موظفي تلك المدينة المنكودة فلورنسا: وإن المرء لايسعه إلا أن يعجب لهذا الرجل الجاهل كلّ الجهل، والخصم اللدود لنا إبن صانع براميل في (پارتو) كيف يعهد اليه بهذه السلطة الكبيرة لا لشيء إلاّ لأنه كان معلماً خاملاً لكوزيمو دي مديتشي قبل أن يصير هذا دوقاً! ومهما يكن من أمر، كان هذا الرجل كما قلت يتربص بي الدوائر باحثاً عن وسيلة لأذيتي. وبعد أن أعيته الحيل ولم يجد سبباً للنيل مني أو إلصاق تهمةٍ بي لجأ الى أسلوب آخر للفوز بمراده. هذا المعلم النذل قصد تلك العاهرة الخائنة (گامبيتّا) والدة صبيٍّ مصنعي (چنچيو) وحبك مؤامرته معها مستهدفاً إرهابي ووضعي تحت طائلة التهديد بحيث لايسعني غير حزم متاعي والرحيل. ونفّذت (گامبيتا) خطة ذلك المعلم المعتوه وكيل الخرج مستخدمةً أساليب من هنَّ على شاكلتها، وشارك في ذلك رئيس شرطة المدينة وهو من مدينة (بولونيا) وقد نفاه الدوق فيما بعد لأعمال مشابهة.

كانت الساعة تشير الى أكثر من الثالثة من مساء ليلة سبت عندما أقبلت (گامبيتا) مع إبنها. وقالت إنها قد سجنت إبنها عدة أيام بسببي.

قلت لها: ما كان عليها أن تسجن إبنها بسببي. ثم إلتفتّ الى الصبي وأنا أضحك لحيلتها الوضيعة وقلت له أمامها:

- أنت تعلم يا(چنچيو) بأني لم آثم معك.

فأجاب وهو يبكي بحرقة "كلا!"

فإنثنت الأم الى إبنها وخاطبته وهي تهزّ برأسها:

- ويل لك أيها الوغد الصغير أتظنني أجهل بما يحدث؟

ثم إلتفتت اليّ وقالت: لا مفرّ لي من أن أخفيه في داري لأن رئيس الشرطة يتعقبه وهو عازم على إعتقاله ان وجده في الخارج، لكنه لن يمسّه بسوٍ إن بقي داخل منزلي. أجبتها إن شقيقتي الأرمل مع بناتها الستّ الطاهرات يشاطرنني السكن وأنا لا أريد أحداً هنا خلافهن. فقالت إن وكيل الخرج قد أصدر الأمر لرئيس الشرطة وسيلقيان القبض عليّ حتماً. لكن ما دمت أرفض إبقاء إبنها في منزلي، فإن أعطيتها مائة كراون فلا داع للقلق من كلّ جهة. لأن وكيل الخَرج صديق حميم ويمكنني الإطمئنان التام من قدرتها على تحويله عن عزمه والقيام بما تريد، شريطة أن أدفع لها الكراونات المائة.

أترع جام غضبي وهاجت نفسي فصحت بها:

- أغربي عن وجهي أيتها القحبة الصفيقة. لولا حرصي على أن لا أسبب فضيحة ولولا خوفي على براءة هذا الصبي البائس الذي جئت به. لقطعت رقبتك بهذا الخنجر.

ومددت كفيّ الى قبضته مرتين أو ثلاثاً.

بهذه الكلمات وببعض الركلات واللكمات الموجعة دفعت بها وبإبنها الى الخارج.

رحت أفكر مليّاً بخبث هذا المعلم وسوء طويته، وبمبلغ سلطانه، فقررت بأن خير ما أعمله هو أن

أترك هذه القضية الشيطانية تنفجر كالصاعقة وتتبدد كالدخان. فنهضت في الصباح الباكر وإمتطيت حصاني منطلقاً به نحو البندقية يلازمني صديقي (برناردينو الموجللّي). مستودعاً شقيقتي بعض الأحجار الكريمة وحاجات مختلفة أخرى تناهز قيمتها ألفي كراون.

بوصولي (فرارا) كتبت لسموّ الدوق ما مفاده إني سأعود دون حاجة منه لأن يرسل في طلبي. لأني رحلت لرغبة خالجتني دون أن يرغمني أحد عليها. وبعد وصولي البندقية عدت أفكر بسوء حظيّ، وكيف تُوجّه اليّ الضربات القاسية غدراً. وعجبت لبقائي سليماً معافى رغم ذلك كله. فقوي عزمي على المقاومة والدفاع كعادتي. واصلت التفكير في أموري على هذا المنوال ووجدت سلامي المنشود في تلك المدينة الجميلة الحافلة بآيات الفنّ. ثم إنطلقت للسلام على (تيتيان Titian)[٧٣] الرسام العبقري. وعلى مواطننا الفلورنسي النحات القدير والمهندس الألمعيّ (جاكوبو سانسوڤينو Jacobo Sansovino) الذي كان يحظى بمنزلة كبيرة عند حاكم البندقية. تعارفنا في أيام الصبا أيام كنت في روما. وجددنا المعرفة في فلورنسا مسقط رأسه إحتفى بي هذان الفنانان العظيمان ورحّبا بعظيم مودة.

في اليوم التالي إلتقيت صدفة السيد (لورنزو دي مديتشي)[٧٤] فأسرع فوراً يصافحني ويرحّب بي أجمل ترحيب. فقد عرف أحدنا الآخر في فلورنسا عندما كنت أشتغل في ضرب سكّة الدوق (أليسّاندرو)[٧٥] وبعدها في پاريس عندما كنت في خدمة الملك. وكان آنئذ ضيفاً على (گويليانو بونّاكّورزي Giuliano Buonaccorsi) ولما لم يكن يملك موضعاً يمضي في أوقاته دون التعرض لخطر كبير، فقد إعتاد قضاء معظم ساعات يومه في قلعتي يتابع عملي في تلك الآثار الفنيّة العظيمة. قلت انه وبسبب معرفتنا القديمة أخذ بيدي وإقتادني الى بيته وهناك وجدت النبيل (پريور دليي ستروزي) شقيق النبيل (پييرو) وسألاني وهما يرحبان بي مسرورين كم أنوي البقاء في البندقية ظانين أني في طريقي الى فرنسا. فصارحت هذين النبيلين بالأسباب التي حملتني على ترك فلورنسا وهو ماشرحته آنفاً. ثم قلت إني أعتزم العودة لخدمة الدوق الأكبر- بعد يومين أو ثلاثة. ما إن تلفظت بهذه العبارة حتى طفق كلّ من (لورنزو) و(پريور) يحدّقان بي بصرامة، فشاع في أوصالي خوف عظيم. بعدها قالا:

- خير لك أن تعود الى فرنسا فأنت هناك ذائع الصيت غنيّ ولو عدت الى فلورنسا فستخسر كلّ ما نلته في فرنسا. ولن تُكافأ إلاّ بالمتاعب.

(٧٣) تيتيان ڤيچيللي ١٤٩٠-١٥٧٦. رسام بندقي ذائع الصيت. أشهر آثاره (صورة الحبل بلادنس) وترى رسومه في الكنائس الأثرية في عدة من إيطالية.

(٧٤) (١٥١٤-١٥٤٨) إنتهز لورنزو نقمة الفلورنسيين على اليساندرو فإغتاله في العام ١٥٣٧، وكان صديقه وعشيره في لهوه فضلاً عن صلة القرابة- ظانّاً ان الثورة ستعم فلورنسا وسينصب هو دوقاً بدلاً عنه. ولما لم يحصل ذلك فقد هرب الى مدينة بولونيا ثم الى تركيا ثم الى فرنسا وأخيراً لجأ الى البندقية حيث اغتيل بيد مجهول. وهذا يفسر وجوده مع آل ستروزي كما ذكر چلليني.

(٧٥) بعد أن وقع الصلح بين كليمنت السابع البابا والإمبراطور في العام ١٥٣١ سيق جيش الى فلورنسا وبعد حصار دام (١١) شهراً إستسلمت المدينة وقُضي على الحكم الجمهوري واعيد اليساندرو دوقاً.

لم أجبهما بشيء. وفي اليوم التالي إنطلقت عائداً الى فلورنسا سراً دون علم أحد بقدر إمكاني[٧٦]. في أثناء ذلك كانت القضية الشيطانية قد شاعت، كما إني كنت قد كتبت للدوق المعظّم مطلعاً إياه على الأسباب والظروف التي حملتني على الرحيل الى البندقية.

إستقبلني الدوق بتحفظه المعتاد وبصرامة ولكن بدون إثارة ضجة. وظلّ تعامله معي مشوباً بالبرود ساعة من الزمن ثم إستدار نحوي هاشّاً باشّاً وسألني أين كنت؟ فأجبته أن قلبي لم يتحول قيد أنملة عن سموّه الجليل وإن أرغمتني أسباب معينة وجيهة على إطلاق العنان لجسدي ليتجول ويدور ضمن مسافة قصيرة. بعدها شرع يسألني عن البندقية وزاد إقباله عليّ. وتبادلنا الحديث برهة. في الختام شدّد عليّ بمواصلة العمل والفراغ من (پرسيوس). فعدت الى داري سعيداً بقلب خالٍ من الهمّ. وإرتاحت أسرتي أي أختي وبناتها الستّ بعد قلقٍ. وباشرت العمل وقطعت فيه أشواطاً بهمّة ونشاط.

كان أوّل ما تعيّن عليّ صبّه بالبرونز- التمثال النصفي الكبير الذي عملته لسموّه من الصلصال في دكان الصياغة عندما داهمتني آلام الظهر. وكان عملاً بسيطاً لا تعقيد فيه ما دفعني إليه إلاّ حرصي على إختبار الصلصال ومقدار صلاحه لصبّ البرونز. كنت قد علمت أن (دوناتللو) الملهم قد إستخدم صلصالاً فلورنسياً عندما صبّ تماثيله البرونزية. إلاّ أنه عانى منه أشدّ الصعاب حتى أصاب نجاحه. وبما إني تصورت أن المشقّة التي عاناها كانت بسبب رداءة الصلصال، فقد رأيت أن أقوم بهذه التجارب قبل شروعي بصبّ (پرسيوس). على إنه إتضح لي بعد تجاربي بأن الصلصال جيد وإن (دوناتللو) العظيم لم يتفهم خواصه تفهماً تاماً ولهذا عانى ما عاناه. ومهما يكن فقد أعددت الصلصال بأحسن مايمكن وإعتنيت عناية فائقة بعجنه وخلطه فكان نجاحي فيه كبيراً، وإستخدمته كما قلت في صبّ التمثال النصفي. ولما لم أكن بعد قد بنيت مسبكي الخاص فقد إستخدمت له مسبك (زانوبي دي پانيو Zanobi di Pagno) صانع الأجراس.

ولما ظهر الرأس جميلاً نظيفاً لاتشوبه شائبة، شرعت فوراً في بناء مسبك صغير في الدكان الذي كان الدوق قد ملكني إياها. وتم بناؤه طبقاً لمخططي وفكرتي. وكنت أنوي بناءه في البيت الذي وُهب لي. لم أكد أفرغ من البناء حتى بدأت أستعد- محشداً كلّ طاقاتي- لصبّ مجسّم المرأة (ميدوسا) التي تتخبط تحت قدمي (پرسيوس). ولما كانت العملية في غاية الصعوبة فقد حزمت أمري على الإفادة من كل المهارات والخبر التي إكتسبتها لتفادي أية هفوة ممكنة. وبنتيجة ذلك خرجت القطعة الأولى في غاية الكمال والنظافة، بحيث أشار عليّ أصدقائي بأني قد أخطيء في إجراء أي تهذيب عليها أو مسّها بتعديل. هذه الطريقة كان قد وقف عليها صنّاع ألمان وفرنسيون فإدعوا الى جانب إمتلاكهم بعض الأسرار الدفينة في هذا المجال- بأنهم قادرون على صبّ البرونز من غير حاجة تدعوهم الى تهذيب أو معالجة تالية للقطعة المصبوبة. وهو في الواقع إدعاء سخيف. اذ بعد ان يصبّ البرونز ويُسبَك بالهيئة المطلوبة لابدّ وأن يُعالج بالإزميل والمطرقة، وهو ماكان يفعله أعاظم المثّالين، القدماء

(٧٦) يستنتج من عودة چلليني السريعة. ان الخوف الشديد من إتصاله بأقطاب الجمهوريين الفلورنسيين المنفيين في البندقية قد يضعه موضع شبهة ويجرّ عليه متاعب ومشاكل تزيد بكثير عن قلقه من القضية التي ارغم على ترك فلورنسا بسببها.

منهم والمحدثين أو على الأقل أولئك المحدثين الذين يشاركونني المعرفة بهذا.

سرّ سموّه بالنتيجة وتردد اليّ عدة مرات لمشاهدة هذا الجزء من التمثال مشجعاً حاثّاً على تحقيقي مزيداً من النجاح. إلاّ أن الحسد الجنوني الذي كان يكنّه لي (باندنللو) ظل يلاحقني. فلم يكفّ عن صبّ إفتراءاته عليّ في أذنيّ سموّه، فأثر فيه بدرجة كبيرة حتى حمله على الظن بأني وإن نجحت في صبّ قطعة أو قطعتين من التماثيل، سأخفق إخفاقاً تاماً في صبّ المجموعة التي يتألف منها التمثال لأن هذا الفن مجهول بالنسبة اليّ. وإن على سموّه أن يحرص على أمواله لئلا تضيع. بلغ من تأثير هذه الأقوال في مسامع الدوق النبيلة حداً أدى الى قطع بعض الأجور المخصصة لعمالي. فإضطررت نتيجة لذلك الى الشكوى الشديدة لسموّه. إنتظرته يوماً في درب (سرڤي Via de Servi) وما أن أقبل حتى وجهت الكلام إليه قائلاً:

- مولاي إن طلباتي لا تُسعف وحاجاتي لا تُسدّ. وأنا أخشى أن تكون ثقة سموّك بي قليلة. دعني أكرر لك بأني قد وعدت وتعهدت بأن يكون عملي أجمل من النموذج الذي عرضته عليك بثلاثة أضعاف.

بعد تلفظي بهذه العبارات التي قوبلت منه بصمت ولم تجد رداً، أدركت أنها لم تثمر فيه. فأدركني الغضب الشديد. وكدت أختنق من فرط تغلب العاطفة.

شرعت أقول:

- لا نكران يامولاي في ان هذه المدينة كانت دوماً مدرسة لأسمى العبقريات. لكن وبعد أن يُوفق المرء فيها الى نيل الشهرة لنفسه وينجح في إكتساب معارف قليلة، فإنه يطمع في أن يضيف مجداً اخر الى أمجاد مدينته وأميرها الجليل بالعمل في مجالات أخرى ولإثبات حقيقة هذا الأمر. دعني أذكّر سموّ بما هو غير خافٍ عليه. إن (دوناتللو) و(ليوناردو داڤنشي) العظيم في الزمن الخالي و(ميكالنجو بوناروتي) العبقري الملهم في زمننا الحاضر، هؤلاء الرجال أضافوا بعبقريتهم مجداً الى مجد سموّك. وإني لأرغب في أن أضرب بسهمي هذا المضمار فأجزني يامولاي لكن فليكن سموّك حريصاً على أن يُبقي (باندنللو) في فلورنسا ولايغادرها بل ليمنحه سموّك أكثر مما يطلب دائماً. فلو قصد مكاناً آخر فأن جهله المطبق وغروره المفرط سيحطّ على أكثر تقدير من سمعة مدرسة فلورنسا الفنية ذات العماد الرفيع. ألا فلتسمح لي يامولاي بالرحيل ولن أطلب شيئاً ما عن أتعابي حتى هذه اللحظة أكثر من عطف ورضا سمّكم العالي القدر.

لما وجد سموّه مبلغ تصميمي وصحّة عزمي إلتفت اليّ غاضباً وقال:

- بنڤنوتو! إن كنت تريد الفراغ من أعمالك، فلن أدعك في حاجة الى شيء.

فشكرته وقلت ان رغبتي الوحيدة هي أن أثبت لحسّادي عزمي وتصميمي على إنجاز ما وعدت به. بعد أن تركت سموّه، حملت اليّ مساعدة صغيرة، صغيرة جداً بحيث ألجأتني الى مدّ يدي الى جيبي لأضمن التقدم بعملي بخطىً أسرع من الزحف على أربع بقليل!

إعتدت الذهاب الى خزانة الثياب في قصر سموّه لقضاء بعض الوقت مع (دومينيكو) وأخيه (جيانپاگولو) في الأمسيات. وكانا يشتغلان في إناء ذهبي للدوقة نوهت به سابقاً، فضلاً عن حزام

ذهبي. كذلك كلّفني سموّه بعمل أنموذج لقلادة سترصع بها الألماسة الكبيرة التي جرّه الى شرائها (برناردو) و(أنطونيو لاندي). حاولت التنصّل والإعتذار عن هذا التكليف إلا أن الدوق بكثير من الإطراء والمجاملة أقنعني بالعمل فيها دائباً منذ المساء حتى الساعة الرابعة بعد الغروب. وحاول بمعسول القول ولطف الطلب أن يحملني على الإشتغال هناك أثناء النهار أيضاً، فلم أنزل عند رغبته وبقيت مصراً لعلمي اليقين بأن رفضي هذا سيكون سبباً في سخط الدوق عليّ. وإتفق اني جئت متأخراً مساء ذات يوم- على غير عادتي فإبتدرني الدوق قائلاً:

-إنك (مالڤنوتو)![٧٧]

أجبت:

- مولاي! هذا ليس بإسمي، وأنا أدعى (بنڤنوتو). لكني أعتقد إن سموك يقصد ممازحتي، ولذلك سأنسى المسألة.

فأجاب الدوق إنه جادّ كل الجدّ وإنه لايمزح. وإن عليّ أن أراقب سلوكي، فقد بلغ سمعه بأني معتمداً على رعايته وحظوتي عنده، أخادع هذا وأستلب ذاك. ولما رجوت سموّه الجليل أن يتكرّم عليّ بإسم شخص واحد على الأقل وقع ضحية خداعي. إلتفت اليّ حالاً وقال بعصبيّة:

- إذهب وأعد الى برناردو ما سلبته من أدواته. وهذا واحدٌ من الأشخاص الذين إحتلتَ عليهم.

فأجبتُ قائلاً:

- إنّي أشكرك يامولاي وأرجو أن تتلطّف بالإصغاء إليّ وأنا في سبيل عبارتين لا غير. لانكران في أنّ برناردو أعارني سلّميْن قديمين وسندانَيْن وثلاث مطارق صغيرة. وقبل أسبوعين من يومنا هذا نبّهتُ مساعده (جيورجيو دا كورتونا Giorgio da Cortona) بأن يرسل من يحمل هذه العُدد والأدوات الى صاحبها. وأقبل (جيورجيو) نفسه فحملها. إن ثبت لسموّك بأنّي منذ جئتُ الى هذه الدنيا حتى الآن، قد إغتصبتُ أيّ شيء من أيّ شخص أفي روما أو في فرنسا، وسواء في ذلك أعلمت ذلك من الناس الذين أبلغوك بهذه الحكاية أو من غيرهم، لو أنّك إكتشفت فيّ شيئاً من هذا القبيل فلكَ أن تُنزل بي العقاب الذي أستحقّه الذي أستحقّه دون أن تأخذك بي رحمة.

عندما وجدني في حالة شديدة من الهياج، نظر اليّ ذلك الدوق المحبوب الحكيم وقال:

- إن تأنيباً كهذا لايُقصد به الأبرياء طبعاً، وإن كانت المسألة كما تدّعي فسأستقبلك دائماً مرحباً بك ومسروراً بمقدمك كما كنت أفعل قبلاً.

فقلت:

- والآن ياصاحب السمو- نظراً الى موقف (برناردو) الشائن أراني مرغماً على هذا السؤال: كم دفعت ثمناً لهذه الألماسة الكبيرة ذات الرأس المقطوط. إني لآمل في أن أثبت بالبرهان الدامغ عما حدا بهذا المحتال الزنيم والوغد الكبير الى محاولة النيل من شرفي وسمعتي.

قال سموّه:

(٧٧) يعني (شرّ مَقدَم) وهو معكوس المعنى المستخلص من إسم (بنڤنوتو) أي (خير مَقدَم). [نوّهنا بذلك في حاشية سابقة].

- كلفتني الألماسة خمسة وعشرين ألف دوقية. ماقصدك من هذا السؤال؟

عندها أخبرت سموّه، انه في يوم كذا وكذا وفي الساعة كذا في منعطف من منعطفات السوق الجديد، طلب مني (أنطونيو ڤيتوريو لاندي) بالتوسط له عند سموّه لشرائها. وكان الثمن المبدئي الذي رسمه لها ستة عشر ألف دوقية. ثم إستتليت:

- ... وها أنت تدري ياصاحب السموّ كم دفعت بها. وإن شئت دليلاً على ما أقول، فسل (دومينيكو يوچيني) وأخاه (جيانپاگولو) وكلاهما موجود فقد أعلمتهما بالأمر فور وقوعه. إلاّ أني منذ ذلك الحين وبعد أن حكم سموّك بأني لا أفهم شيئاً في الموضوع- لم أنطق بكلمة واحدة وحفظتها في نفسي مستنتجاً بأنك تقصد المحافظة على سمعة الألماسة الحميدة. وقد وجب عليّ القول يامولاي بأني على دراية بهذا الموضوع. وأما عن القضية الأخرى، فإني لا أخجل من الإدعاء بالإستقامة والأمانة مطاولاً أي مخلوق على وجه البسيطة مهما كانت سمعته. أنا لست بذلك الذي يحاول سرقتك، فيختلس منك ثمانية أو عشرة آلاف دوقية صفقة واحدة. بالعكس إني أحاول كسبها بكدّ يميني وعرق جبيني. لقد إضطلعت بخدمة سموّك مثّالاً وصائغاً ومديراً لدار الضرب فحسب، وأنا أربأ بنفسي عن وظيفة الواشي والنمّام ونقل الحكايات عن أمور الاخرين الخاصة، وأقوالي هذه هي دفاعي عن نفسي فقط. وإني لأزهد الناس في المكافأة التي تعطي للمخبر الواشي. لقد قلتُ ماقلتُ بمحضر من هؤلاء الطيبين الواقفين حولنا كيلا يصدق مايزعمه (برناردو).

نهض الدوق منتصباً وقد بان عليه الغضب وأرسل حالاً بطلب (برناردو). فإضطر هو و(أنطونيو لاندي) الى الفرار واللجوء الى البندقية. رحلا إليها وبعد قليل عادا وأخبرني (أنطونيو) بأنه كان في حديثي معه يقصد ألماسة أخرى غير تلك التي باعها من الدوق.

وراجعت الدوق وقلت له:

- مولاي إن ماقلته لك عن الأدوات المستعارة من (برناردو) هو الصحيح وما زعمه لك هو الكذب الصراح. ولتسمح بإجراء الرأي الصائب وهو أن يُفتح تحقيق رسمي، وأن تدعني أراجع رئيس الشرطة.

نظر الدوق اليّ ملياً ثم قال:

- أي بنڤنوتو، إحرص على حياةٍ مستقيمة مثلما كنت في الماضي. ولاتدع للقلق والإهتمام بغير ذلك سبيلاً الى نفسك.

وتنوسيت القضية. وتلاشت كما يتلاشي الدخان وكان هذا آخر عهدي بها.

تفرغت الى القلادة. وبعد إنتهائي منها حملتها الى الدوقة فقالت لي بالحرف الواحد بأنها تقوّم صنعتي بثمن الألماسة التي توسط (برناردو) المذكور في شرائها. وشاء لطفها أن أقوم بتثبيتها الى صدرها وناولتني دبوساً كبيراً ففعلت. ثم عدت الى منزلي بعد أن أغدقت عليّ الكثير من والمديح والثناء.

وبعد زمن طرق سمعي بأنهم رصعوا الألماسة في حلية أخرى قام بصياغتها صائغ ألماني أو أجنبي آخر. كم هو مبلغ ذلك من الصحة؟ لا أدري. فلقد حكم (برناردو) بأن الألماسة ستزداد ظهوراً وبروزاً

إن رصعت في حلية أكثر بساطة من حليتي وأقل تعقيداً.

يخال لي أني نوهت قبلاً بقيام الصائغين الأخوين دومينيكو وجيانپاگولو پوچيني بالعمل في خزانة ثياب قصر سموه المعظم مستخدمين نماذجي التي صنعتها لآنية ذهبية صغيرة مزدانة بمجموعة من التهاويل البارزة ولغيرها من الحلي ذات القيمة العالية. وكنت لا أفتأ أقول للدوق:

- مولاي! لو إستأجر لي سموّك الأفخم عدداً من العمال فسأقوم بصنع سكة لك في دار الضرب فضلاً عن ميداليات ينقش عليها رأس سموّك الموقّر، وسأضاهي وأبزّ بها كل ماخلّفه الأقدمون منها. لأني إكتسبت كثيراً من الخبرة والمعرفة منذ صنعي ميداليات الپاپا كليمنت. سأكون قادراً على إخراج أفضل التحف ولسوف أفوق بها السكة التي ضربتها للدوق (أليساندرو)، تلك السكة التي مازالت تعدّ نموذجاً رائعاً. كما سأعمل لك آنية من الذهب والفضة كتلك التي صنعت العديد منها للملك الجليل فرانسوا ملك فرنسا. وبسبب المعونات الكثيرة التي قدمها لي كان في وسعي أن أعجّل في صنع التماثيل العملاقة وخلافها من التماثيل أيضاً.

فقال الدوق مجيباً:

- إمضِ قدماً وسأنظر في أمر مساعدتك.

لكنه لم يزودني بأي مساعدة، ولم يسهّل أموري قط. وفي ذات يوم دفع اليّ ببضع أوقيات من الفضة وهو يقول:

- هذا من فضة مناجمي. إصنع لي منها إناءً جميلاً.

لم يكن بودّي إرجاء الإشتغال بـ(پرسيوس) إلا أني كنت في الوقت نفسه أحرص على تنفيذ طلباته وخدمته، ولذلك عهدت الى وغدٍ من الصاغة يدعى (پييرو دي مارتينو Peiro di Martino) بمهمة صناعة الإناء الفضيّ بعد أن زودته بنموذج شمعي مع تخطيط. فبدء به بداية سيئة وتلكأ في عمله وهكذا ضيعت وقتاً كثيراً يزيد بكثير عمّا لو قمت أنا بصياغته. فبعد أن ضاعت أشهر عليّ و(پييرو) لايقربه ولايكلّف أحداً به، إسترجعته وعانيت مشقة عظيمة في إعادة الإناء الى هيئته الأصلية. وكنت كما قلت- قد بدأت العمل قبل دفعه الى (پييرو). أما الدوق الذي نما اليه طرف من الحكاية فقد أرسل بطلب الإناء والنموذجات دون أن يعرّفني بالقصد من ذلك. وكانت النتيجة أن دفع به الى أيادٍ عديدة في مدينة البندقية، فلم يجيدوا الصنعة فيه قطّ.

دأبت الدوقة على طلب صياغة بعض الحلي لها. فكنت أجيبها بقولي:

- الكلّ يعلم يقيناً وإيطاليا كلّها تشهد بأني صائغ جيّد. إلاّ أن هذه البلاد لم تر منحوتة أو تمثالاً من صنعي. هناك بين أبناء حرفتي عدد من النحاتين الخبثاء الذين يهزأون بي ويصفونني بالنحّات المبتديء، بيد إني آمل أن أريهم فيّ نحّاتاً عتيقاً متمرساً إن مكّنني الله من إكمال پرسيوس وعرضه في ميدان سموّه الشريف.

عدت الى داري وتفرغت للعمل المتواصل ليلاً ونهاراً وإنقطعت عن الذهاب الى القصر. على إني رأيت ضرورة الإبقاء على حظوتي عند الدوقة ونيل رضاها. فصنعت لها عدداً من المزهريات الفضية. وكانت بحجم تلك الآنية الرخيصة المبتذلة. وزيّنتها برؤوس وصور جميلة بأسلوب يخالف المألوف

وعلى طريقة الأقدمين. أخذتها إليها فإستقبلتني بلطف لامزيد عليه وسددت لي قيمة الفضة والذهب اللذين وضعتهما في المزهريات ثم رجوتها أن تعلم الدوق بأني لا أتلقى إلاّ أقلّ مساعدةٍ في عملي الذي كُلّفت به وأن لايُعير كبير إهتمام لقول ذلك الشرير (باندنللو) وإفتراءاته التي حالت بيني وبين إتمام (پرسيوس). بعد هذه الشكوى الباكية هزّت الدوقة كتفيها وقالت:

– بالتأكيد يجب على الدوق أن يسمع هذا، وهو إن صاحبه (باندنللو) هذا لايسوى قلامة ظفر.

لازمت داري لا أرتاد القصر إلاّ في النادر وإنكببت على عملي بغية الفراغ من تمثالي بأسرع وقت. ثم حان أجل دفع أجور عمالي. والذي حصل حولها إن الدوق بعد أن أمر (لاتّانزيو گوريني) بدفع مبلغ يسدّ أجور العمال لثمانية عشر شهراً. أخذ هذا يتأفف ويتمنّع ثم حرمني المنحة. وقال جواباً على طلبي وهو يلوّح بيديه العنكبوتيتين وينأم بصوته الشبيه بطنين البعوضة:

–لماذا لاتفرغ من تمثالك؟ المعتقد الشائع أنك لن تكمله قط.

فأسرعت فوراً الى الرد عليه مهتاجاً:

– الى سقر بك وبكلّ من يعتقد اني لن أكمله!

وقادني يأسي الى داري حيث (پرسيوس) ذو الحظّ العاثر. وتذكرت بعينين دامعتين. المركز الرفيع الذي خلّفته ورائي في پاريس وأنا في خدمة ملك فرنسا الكريم الذي أعطاني الكثير من كلّ شيء في حين أنا الان في فلورنسا خالي الوفاض لا أملك شيئاً. وبدافع اليأس خالجتني فكرة ترك كلّ شيء وفي واحدة من هذه الحالات النفسية النكدة ركبت حصاني الجميل وإنطلقت به الى (فيسيزولي Fiesole)[٧٨] وفي جيبي مائة كراون قاصداً زيارة إبني الطبيعي الذي كنت قد أودعته في حضانة صديقةٍ هي زوج أحد عمالي. فوجدت الطفل في صحة جيدة جداً وقبّلته وأنا كسير القلب حزين. وعندما أزفّ وقت رحيلي تعلّق بي وأبى أن يتركني. أمسكني بيده الصغيرة وإنفجر يبكي بكاءً مراً ويصرخ. فعجبت لصدور هذا من طفل لايتعدى عمره السنتين:

إعتاد (باندنللو) إرتياد مزرعته الواقعة فيما يلي (سان دومينيكو) مساء كلّ يوم. فقررت في لحظة يأس أن ألقي بنفسي عليه إن إلتقيته. إنتزعت نفسي من إبني الصغير وتركته وعيناه تكادان تنفجران بكاءً. وما أن بلغت ميدان (دي سان دومينيكو)[٧٩] وهو على الطريق المؤدية الى المدينة، حتى لمحت (باندنللو) داخلاً من النهاية الأخرى. فقررت في الحال تنفيذ ما صمّمت عليه بهجوم قتّال فدنوت منه ونظرت إليه فاذا هو أعزل يعتلي متن بغلٍ أو حمارٍ زري الهيئة برفقة صبي في العاشرة. ما إن فطن الى وجودي حتى علت وجهه صفرة الموت وأخذ يرتجف ويرتعش من قمة رأسه الى إخمص قدمه. وعندها راجعت نفسي مدركاً العمل الشائن الذي كنت أهمّ بالإقدام عليه. فقلت:

– لاتخف أيها الجبان الرعديد. فإني لن أحطّ من قدر نفسي بضربك.

تطلّع اليّ بذلّة وإنكسار ولم ينبس ببنت شفة. هكذا تغلب الجانب الطيّب مني وحمدت الباري الذي عصمتني قدرته وألطافه من إرتكاب مثل هذه المعصية. بعد أن تحررت من غضبي الشيطاني إرتفعت

(٧٨) ضاحية تقع شمال فلورنسا وتبعد عنها زهاء ثماني كيلومترات.

(٧٩) مازال هذا الميدان محتفظاً بإسمه الى يومنا هذا. [حاشية مكداول]

معنوياتي وقلت لنفسي:

- إن لطف الله بي وأعانني على إنجاز عملي فإني آمل بهذه الوسيلة قهر كلّ أعدائي الغدّارين وسأنالثأراً أعظم مما لو صببت جامه على أحدهم.

بهذا العزم الجميل عدت الى داري. وبعد ثلاثة أيام وردني نبأ إختناق إبني الوحيد بإهمال الحاضنة. فكان حزني يفوق كلّ أحزاني السابقة ولم أجد إلا أن أركع على ركبتيّ باكياً شاكراً الباري وقلت باللهجة التي إعتدتها في مثل هذه الظروف:

- إلهي! أنت أعطيته وأنت أخذته وأنا أحمدك وأشكرك على كلّ حال ومن صميم قلبي.

ومع حزني الذي كاد يسحقني تحته، تجمّلت بالصبر وجعلت من الضرورة فضيلة وكعادتي روّضت نفسي على الصبر والتحمل.

في حدود ذلك الزمن، إتفق أن شاباً في مقتبل العمر يدعى (فرانشسكو) إبن (ماتيو) الحداد. ترك العمل عند (باندنللو) وجاءني يطلب عملاً عندي. فرحبت به وكلّفته بصقل وتنظيف تمثال (ميدوسا) الذي كنت قد فرغت من صبّه. وبعد مرور أسبوعين أخبرني هذا الشاب بأن حديثاً جرى بينه وبين (باندنللو) وإن (باندنللو) هذا حمّله رسالةً لي، مجملها انه على إستعداد لإهدائي رخامة ثمينة إن كنت أرغب في نحت تمثال من الرخام. فأجبت على الفور:

- قل له إني أقبل. وأتعشم أن تكون شاهداً يوضع على قبره. ان الرجل لا يفتأ يستفزني. ولعله نسي الخطر الماحق الذي كان يواجهه عندما إلتقاني في ميدان (سان دومينيكو). أجل قل له إني أريدها على كلّ حال. أنا لا آتي الى ذكره ولا أتحدث عنه قطّ إلا أن الحيوان يصرّ على إزعاجي وإقلاق راحتي وما أظن مجيئك اليّ وعملك عندي إلا لأنه أرسلك للتجسس على أشغالي، ومهما يكن من أمر قل له إني أقبل الرخامة رغم أنفه، فاذهب وجئني بها.

مرت عدة أيام وأنا معتكف في بيتي لا أزور القصر ثم خطر لي فجأة أن أتوجه اليه في صبيحة يومٍ. وجدت الدوق قد فرغ لتوه من تناول طعامه ومما سمعته هناك هو أن سموّه كان في ذلك الصباح يشيد بي ويمتدحني. ومما نوه به في هذا الصدد مهارتي في التكفيت ورصع الأحجار الكريمة. الخلاصة أن الدوقة لما رأتني أرسلت النبيل ستورزا Storza تستدعيني إليها ولما قدمت نفسي لسموّها الأفخم طلبت مني أن أقوم بصنع خاتم صغير لألماسة صغيرة مقببة. قالت إنها ستضعه دوماً في خنصرها. ودفعت اليّ بالألماسة التي كانت تسوى مائة كراون تقريباً فضلاً عن المقياس المطلوب راجية مني الإستعجال فيه. فبادر الدوق الذي كان حاضراً، يناقش موضوعي مع الدوقة، إذ قال:

- لاشك أن بنڤنوتو وحيد عصره في مجال صناعته. لكني أتصور بعد ان هجرها إن تكليفه بخاتم صغير كالذي طلبته سيتعبه كثيراً لذا ارجو ان لاتثقلي عليه به رغم تفاهته فإنه سيتضايق منه بعد ان طلّق حرفته.

شكرت الدوق على أحاسيسه ثم رجوته ان يسمح لي بتقديم هذه الخدمة الصغيرة للدوقة. وبدأت العمل دون تلكؤ فأكملته في بضعة أيام. وكانت قد قررت أن تضعه في خنصرها ولذلك جعلتُ فيه ثلاثة ملائكة صغاراً بارزة، وأربعة أقنعة صغيرة. ثم نظمت حول الألماسة بعض الثمار مطلية بالميناء وربطتها بها، فبدا الخاتم بأجمل ما تقع عليه العين. أخذته من فوري الى الدوقة، فقالت بلطف

وإستبشار إني صنعت لها أجمل حلية وأردفت تقول إنها لن تنساني. ثم إنها أرسلت الخاتم هدية الى الملك فيليپ[٨٠]. ثم واصلت تكليفي بصنع الحلي وكان أسلوبها في الطلب رقيقاً ساحراً يضطرني مرغماً على تلبيته مع إني ماكنت أرى من مالها لقاء أتعابي إلاّ القليل. والله يدري كم كنت في حاجة الى شيء منه. فقد أردت الفراغ من (پرسيوس) وإستخدمت لمساعدتي فيه عدداً من الشباب كنت أدفع أجورهم من جيبي. وعدت أتردد الى القصر أكثر مما كنت أفعل في السابق.

في يوم عيدٍ أو ما أشبه قصدت القصر بعد الغداء. وما إن إحتوتني (غرفة الساعة) حتى لاحظت أن باب خزانة الثياب مفتوح فدنوت منه قليلاً وإذ بالدوق يناديني ويحييني ببشاشة قائلاً:

- مرحباً بك. الق نظرة على هذا الصندوق الصغير الذي أهداه لي السيد (ستيفانو پالسترينا Stefano Palestrina) افتحه ودعنا نرى ما فيه.

فبادرت الى فتحه وقلت للدوق:

-مولاي. أنه تمثال من الرخام اليوناني. وهو أثر فنيّ رائع. وأنا لا أتذكر اني شاهدت مثل هذا التمثال الاثري -الذي يمثل صبياً صغيراً منحوتاً- بهذه الدقة والجمال. وليسمح لي سموّك الأفخم بأن أعرض عليك إصلاحه ،أعني بإضافة الرأس والذراعين والقدمين وسأضعه على نسر كي يصحّ إطلاق إسم (گانيميد)[٨١] عليه. ومع إن ترميم التماثيل ليس من شأني (هذا النوع من العمل يناط عادة بالمرقّعين وهم أجهل الناس) فإن مهارة هذا النحات العظيم تسوقني الى خدمته.

سُرّ الدوق كثيراً بمعرفة قيمة التمثال وجماله. وأمطرني بالعديد من الأسئلة حوله:

- قل لي ياعزيزي بنڤنوتو، ماذا حقق النحات الصانع فيه بالضبط بحيث حملك على الإعجاب بالتمثال؟

وهنا بذلت جهدي لإبراز النواحي الفنية فيه والأسلوب النادر الذي إتبعه النحات والإدراك الدقيق لأسرار الفن الذي يحتويه. وواصلت الضرب على هذا الوتر مليّاً وأنا مسرور لأني كنت أعرف مبلغ إستمتاع الدوق بالإصغاء اليّ عند بحث هذه المواضيع.

وبينما أنا أنادم سموّه بهذا الشكل اللطيف. إتفق أن أحد الحجّاب خرج من غرفة الثياب وقبل ان يتوارى دخل (باندنللو) فقطّب الدوق عند رؤيته وقال بلهجة خلت من الودّ:

- عَمَّ تبحث؟

وبدلاً من الإجابة فوراً، أرسل (باندنللو) طرفه الى الصندوق الصغير حيث التمثال قائم ظاهر وقال للدوق وهو يضحك بخبث ويهزّ رأسه:

- مولاي، لديك هنا واحدٌ من تلك الأشياء التي طالما حدّثتك عنها. هؤلاء الأقدمون كما ترى لايفقهون شيئاً عن تشريح الجسم البشري. ولذلك كانت آثارهم ملأى بالأغلاط.

(٨٠) هو الملك والإمبراطور فيليپ الثاني (١٥٢٧-١٥٩٨) ابن شارلكان ملك إسپانيا. تولي الحكم بعد وفاة ابيه وسار على نهجه في توسيع رقعة أملاك أسپانيا وفي عهده مني الأسطول الذي وجهه لغزو بريطانيا (الأرمادا) بهزيمة ساحقة في (١٥٨٨).

(٨١) في الأساطير اليونانية: شاب جميل حمله (جوپتر) الى الأولمپ ليكون ساقي الآلهة.

بقيت ساكناً غير ملقٍ بالاً الى حديثه، بل إني أدرت له ظهري. وما أن فرغ الحيوان من ثرثرته السمجة حتى إبتدرني الدوق قائلاً:

- لكن هذا يا بنڤنوتو يناقض كل ما برهنته لي بمنطق ساحر للغاية. ألا دعنا نسمعك وأنت تدافع عن التمثال قليلاً.

قلت رداً على سؤال الدوق الذي وجهه بكلّ لطف:

-مولاي! على سموّك الأفخم أن يدرك بأن (باچيو باندنللو) هو الشرّ مجسماً وقد كان كذلك دوماً. ولهذا فإن كلّ شيء يقع عليه نظره الكريه ينقلب الى قبح وشرّ بالغ مابلغ من الجمال والرفعة. لكني أنا الذي كنت دائماً أنجذب الى كلّ ما هو جميل وطاهر- أرى الأشياء من زاوية صافية نقيّة ولهذا فإن ماعرضته لسموّك حول التمثال البالغ قمة الجمال، هو الحقّ الصراح وإن ماقاله عنه (باندنللو) إنما يعكس سوء طبعه.

وقف الدوق يصغي اليّ بغاية اللذة والإنشراح. وكان (باندنللو) أثناء حديثي يديم التململ والتاؤد وتنقلب سحنته لتبدو غاية في القبح على قبحه بالأصل. ثم ترك الدوق القاعة سالكاً سبيله عبر حجرات في الطابق الأسفل وسار (باندنللو) في أعقابه تابعنا الدوق والوصفاء يمسكون بطرف معطفي ويقودونني عبرها حتى بلغ سموّه غرفة فإتخذها مجلساً ووقفنا أنا و(باندنللو) كلّ الى جانب لاننطق بحرف والرجال يحفّون بنا وبضمنهم عدد من خدم سموّه، والجمع يوجّه الى (باندنللو) نظراً حديداً ويتهامسون فيما بينهم حول ماقلته في الغرفة العليا. ثم بدأ (باندنللو) هراءه بالقول:

- مولاي. عندما أزحت الستار عن تمثالي (هرقل وكاكوس)[٨٢] كنت متأكداً بأن أكثر من مائة قصيدة مبتذلة قد نظمت بحقي تتضمن أقذع شتائم يمكن أن تصدر من أمثال هؤلاء الرعاع.

فقلت جواباً على هذا:

- مولاي. عندما أزاح مواطننا (ميكالنجلو بوناروتي) الستار عن (سكرستيّه Sacristy)[٨٣] بتماثيلها الجميلة العديدة. نظم فنانونا الموهوبون من نوابغ فلورنسا أصدقاء الحقيقة والتفوق أكثر من مائة قصيدة بحقها يسابق أحدهم الآخر في إزجاء أرفع المديح والثناء. فكما إستحق عمل (باندنللو) كلّ الهجاء الذي يقول انه قُذف به كذلك كان عمل (بوناروتي) يستحق كلّ الإطراء الذي قيل فيه.

بلغ الغيظ بـ(باندنللو) حداً حسبت معه انه سينفلق. فإلتفت اليّ وقال:

- وماهي تلك العيوب التي تأخذها عليه؟

- سأخبرك بها إن صبرت على سماعها.

(٨٢) هذا التمثال الكبير مازال قائماً في (الأوفيزي) بفلورنسا. وهو ليس بالشكل الذي يصفه چلليني بطبيعة الحال. وهرقل في الأساطير اليونانية أشهر من أن يُعرّف به. أما (كاكوس) فهو إبن (ڤولكان) إله النار، لص وقاطع طريق سرق أبقاراً لهرقل وإستاقها فتعقبه هرقل وإستعادها منه مهتدياً إليه بخوارها.

(٨٣) حجرة قد تكون خارج البيعة أو خارجها. مخصصة لحفظ الآنية المقدسة والحلل الكهنوتية وغير ذلك من الألبسة والحاجات الكنسية.

- إذن فهات ماعندك.

كان الدوق والحاضرون يتطلعون الى ما سأقول بكل شوق.

قلت أولاً:

- من الواجب عليّ أن أقول انه ليؤلمني الإشارة الى عيوب تمثالك، لذلك فإني لن أتطرق اليها وسأقصر كلامي على إعلامك بأقوال شعراء فلورنسا عنها.

كان الرجل البائس تارة يتمتم بشيء سخيف، وتارة يحرك قدمه ويلّوح بيديه. حتى أثارني الى الحد الذي جعلني أبدأ بداية مهينة جارحة ماكنت لألجأ اليها لو انه تصرف بخلاف ذلك.

- ... إن مدرسة الخبراء في فلورنسا تقول: لو أن شَعْر (هرقل) قد حُلق لما بقي من رأسه ما يكفي لإستيعاب دماغه. وإن المرء لايدري أوجهَهُ هو وجه إنسان أم مزيج من رأس أسد وثور؟ وإن نظرته غير طبيعية، وإن إلتحام الرأس بالعنق هو على أسوأ ما يكون. إلتحام سيء قبيح لم يُشاهد مثله من قبل. وإن كتفيه القبيحتين تشبهان مقدمة ومؤخرة برذعة حمار النقل. وأن صدره وبقية عضلاته لم تستنسخ عن جسم بشري وإنما إستوحيت من غرارة عظيمة الجرم ملأى بالبطيخ ومستندة الى حائط! وأما الحُقوان فكأنما نُقلا عن كيس من اليقطين المستطيل. وبخصوص الساقين فمن المتعذر أن يُفهم كيف تمّ وصلهما بالجذع ذي الشكل البائس. كما كان من الصعب ان يتبين المرء على أيّ من قدميه يقف أو على أيهما يوازن جسمه. ومن المؤكد إنه لايبدو مركّزاً ثقله عليهما معاً، كما هو الحال في بعض التماثيل التي نحتها أولئك الفنانون العارفون من أسرار الصنعة. وكل ما يُشاهد منه هو أنه يميل الى أمام بدرجة مَيل قدرها ثلث كوبيت (٦ إنجات). وهذا بحدّ ذاته أسوأ خطأ يرتكبه هذا الصانع الفاشل السوقي. وهو ما لايمكن إغتفاره له أبداً. أما عن الذراعين فقد قيل انهما يبرزان بصورة قبيحة ويفتقران الى الأناقة حتى ليبدو وكأن النحات لم يشاهد جسماً بشرياً حيّاً عارياً. وقالوا أيضاً أن ساق هرقل اليمنى قد إلتحمت بساق (كاكوس) في الوسط بشكل لو أزيحت أية ساق منهما فإن كليهما- لا واحدة منهما- ستكون بدون ربلة[٨٤] ويقولون كذلك إن إحدى قدمي (هرقل) قد دُفنت وأن الثانية تبدو وكأن أحدهم اشعل ناراً تحتها.

لم يطق الرجل صبراً على السكوت ولم يدعني أواصل وصف العيوب الكبرى في (كاكوس): أولاً لأني كنت أقول الحقيقة. وثانياً لأني كنت أكشف المعايب بكلّ وضوح للدوق وللحاضرين الآخرين الذين كانوا يعبّرون عن عجبهم ويكشفون عن إدراكهم بأني أصبت كبد الحقيقة.

صرخ الرجل مقاطعاً:

- تباً لك أيها المفتري الخبيث. وما قولك عن نموذجي؟

قلت:

- من يحسن عمل النماذج لايمكن أن يصنع تماثيل سيئة. لذلك فلي أن أحكم أن نموذجه هو من طينة عمله الرديء.

(٨٤) هي عضلة الساق الخلفية.

ثم ركبه الهياج لدى ملاحظته موقف الدوق والحاضرين والتعابير المرتسمة على وجوههم، فغلبت عليه صفاقته ووقاحته وأدار وجهه القذر القبيح نحوي وقال:

- اسكت أيها اللوطيّ القذر.

وقطب الدوق جبينه غاضباً. وزمّ الآخرون شفاههم وراحوا يبحلقون فيه وأنا إزاء هذه الإهانة الشنعاء كدت أختنق كمداً. لكني وجدت الجواب المناسب في الحال، فقلت:

- أيها المجنون. إنك تعديت كلّ الحدود. على إني أرغب من صميم قلبي أن تدلني على كيفية ممارسة هذا العمل الشريف! على أية حال نحن نقرأ عن سيد الآلهة بأنه كان يمارس ذلك مع (گانيميد) في الجنّة. وأما هنا على الأرض فنحن نرى أعظم الأباطرة وملوك العالم يتعاطونه. إني إنسان خامل الذكر صغير الشأن لاقدرة لي على ممارسة هذا العمل المدهش ولا معرفة لي به.

وهنا لم يستطع أحدٌ ضبط نفسه فإنفجر الدوق وسائر الموجودين يقهقهون وتعالت صرخاتهم حتى إرتجّت لها أركان القاعة. صحيح إني إتخذت من الأمر مادة للهزل والتندر. إلاّ أن جوفي - ياقرّائي الأعزّاء- كان يحترق لبلوغ الجرأة بهذا الرجل وهو أقذر وغد ولدته أم، الى الحد الذي يقذفني بإهانة مثل هذه بمحضر من هذا الأمير العظيم. إلا أنكم أدركتم بدون شك بأن المُهان الحقيقي هو الدوق لا أنا. اذ لو لم أكن بين جمع من النبلاء كهذا الجمع لما ترددت في إخماد أنفاسه.

لما وجد السوقي الأبله القذر أن السادة الحاضرين مسترسلون في إرسال ضحكاتهم عاجزون عن وقفها راح يغيّر الموضوع في سبيل وضع حدّ للضجة فقال:

- ان هذا البنڤنوتو يشيع بين الناس مفتخراً بأني وعدته بقطعة رخام...

ولم أدعه يكمل عبارته فقاطعته قائلاً:

- ماذا؟ ألم ترسل (فرانشسكو) إبن ماتيو الحداد أحد معاونيك ليقول لي بأنك على إستعداد لإهدائي قطعة من الرخام في حال إبداء رغبتي؟ أو لم أقبل عرضك هذا؟ ثق إني متمسك بوعدك ولن أدعك تنكل عنه.

فأجاب:

- اطمئن إنك لن تراها أبداً.

مازال جوفي يتلظى من نار الشتائم الكاذبة التي صبّها. فما نطق بهذه العبارة حتى افلت زمامي من يدي ونسيت اني في حضرة الدوق وصحت بهياج:

- هذا إنذار صريح لك. إن لم ترسل الرخامة الى بيتي فلتبحث لك عن عالم ثانٍ تعيش فيه. لن أصيب راحة في هذه الدنيا حتى أبقر بطنك وأخرج هواءها.

وصحوت على الفور مدركاً إني أواجه الدوق فإستدرت الى سموّه بكل خشوع وقلت:

- مولاي! الأحمق الواحد يخرّج مائة أحمق. إن لوثة هذا الرجل أنستني بأني قائم بين يديك، كما ان حقك في التوقير واجب علينا فعفواً ومغفرة.

التفت الدوق الى (باندنللو) وسأله:

- أصحيح هذا ؟ هل وعدته برخامة؟

فإعترف (باندنللو). فقال لي الدوق. إذهب الى (الأوپرا) وإختر ما تريد من الرخام بحسب ذوقك.

قلت إن (باندنللو) وعد بإرسالها الى داري. ثم وقع جدال حاد وبقيت مصراً على أن تصل الرخامة الى داري. وفي صبيحة اليوم التالي وصلت داري قطعة من الرخام فسألت عن مرسلها، فقالوا إنها من (باندنللو) وهي التي وعدني بها. فنقلتها حالاً الى المعمل وبدأت أعمل إزميلي بها. وفيما كنت أعالجها قمت بعمل نموذج لها إلاّ أن لهفتي الى نحتها أفقدتني الصبر على إتقان النموذج والإعتناء به. ثم تبين لي أن الرخامة هشّة جوفاء وندمت كثيراً على بدايتي في نحتها. على أني نحتُّ ماتيسّر منها وأقصد هيئتي (أپوللو وهياسنته)[٨٥] اللذين مازالا موجودين في مصنعي غير كاملين. وكان الدوق يزورني وأنا عاكف على عملي وكثيراً ماقال لي:

- دعك من البرونز الآن وابدء العمل. وخلّني أشاهدك تشتغل في الرخام.

فأتناول إزميلي وأبدأ العمل بنفسية الواثق من الإجادة. وسألني يوماً عن التصميم الذي صنعته للرخامة. فأجبت:

- مولاي إن الرخامة ملأى بالصدوع إلاّ أني سأستخرج شيئاً منها. لذلك لم أشأ الإستقرار على فكرة معينة لتصميم. وإن كنت سأستمر في نحت التمثال على خير مايمكنني.

أسرع الدوق فأرسل اليّ قطعة من الرخام كان قد جلبها من روما لإصلاح تمثال (گانيميد) الأثري سبب المشادة بيني وبين (باندنللو). وبعد أن تمثلتها وجدت من الحيف أن أقطّعها لأعمل منها رأساً وذراعين لذلك إستخدمت قطعة أخرى. وقمت بعمل تصميم للرخامة اليونانية صغيرة الحجم من الشمع وأطلقت عليه إسم (نارسيوس)[٨٦]. كان في هذه القطعة ثقبان عمقهما أكثر من ربع كوبيت (٥ . ٤ إنجات) وسعتهما قدر إصبعين. ولهذا إتخذت لتصميمي الوقفة التي يتمّ بها تحاشي الثقبين وبعدها فصلتهما. إلاّ أن الرخامة كانت قد تركت تحت المطر زهاء عشر سنوات. حيث كان الثقبان فيها لايخلوان قطّ من ماء المطر الذي تغلغل فيها فنخرها نخراً وأبلاها. ولم ينكشف مدى التلف المتأتي من الثقب الأعلى إلاّ بعد حين أي عندما فاض نهر (الأرنو) وإرتفع منسوب مياهه في مصنعي الى مايزيد عن كوبيت ونصف كوبيت. وكان (نارسيوس) مقاماً على كتلة من الخشب فعلاه الماء حتى غمره فإنكسر الى شطرين من ناحية الصدر فلحمته. ولكي أخفي موضع الإنشطار أضفت الى التصميم قلادة من الزهر ترى مستقرة فوق الصدر. ودأبت على العمل فيه يومياً إبتداءً من الفجر وفي أيام الأعياد أيضاً حتى أكملته؛ كلّ ذلك حرصاً على أن لا أضيّع شيئاً من وقت العمل المخصص لـ(پرسيوس).

(٨٥) في الأساطير الإغريقية هياسنته Hyacinthus شاب عشقه أپوللو وقتله خطأ وأنبت لذكراه زهرة الزنبق من مسقي دمه

(٨٦) في الأساطير الإغريقية. هو شاب بارع الحسن نظر الى صورة وجهه المنطبعة في الماء فعشقها ومال كثيراً وهو يتأملها فسقط في الماء وغرق. ونبتت في الموضع زهرة النرسيسه او النرجسة. ومنه جاء المصطلح السايكولوجي لداء عصابي يعرف بالنرجسية أي عشق الذات.

ذات يوم، وأنا أقوم بسنّ عدد من الأزاميل التي أستخدمها، طارت شظية دقيقة جداً من الفولاذ وإستقرت عميقاً في إنسان عينيّ بحيث تعذر إخراجها. خيّل لي أني سأفقد بصر هذه العين حتماً. وبعد أيام إستدعيت الطبيب (رافاييللو دي پللي Rafaello di Pilli) فجاء بحمامتين حيتين وأضجعني على نضدٍ ثم أمسك بالطائرين وفتح بسكين صغيرة عروقاً كبيرة في جناحيهما فتدفق الدم في عيني. وشعرت فوراً بالراحة، وقبل أن يمرّ يومان على ذلك خرجت الشظية وسلُم بصري وتحسَّن.

وأقبل عيد القديسة (لوچي)[٨٧] بعد ثلاثة أيام من شفائي. فقمت بصياغة عين ذهبية من قطعة تاج فرنسي وأوعزت الى واحدة من بنات أختي الستّ وهي (ليبيراتّا) البالغة عشر سنين- بتقديمها للقديسة نيابةً عنيّ، عربوناً لشفائي شاكراً الله وأياها.

طال ترددي في العمل بتمثال (نارسيوس). وإنقضت فترة وأنا غير مستقرّ على رأي فيه. إلاّ أني واصلت الإشتغال في (پرسيوس) رغم الظروف الصعبة التي أتيت الى ذكرها. وكلّي عزم وتصميم على الفراغ منه ثم الرحيل عن فلورنسا. صببت (ميدوسا) بالبرونز فخرجت على أحسن هيئة. وأشرفت على إكمال (پرسيوس) تحدوني آمال جسام. كنت قد كسوته بالشمع ومنيّت النفس بالنجاح في صبّه مثلما نجحت في صبّ (ميدوسا). كان (پرسيوس) المكسوّ بالشمع يبدو مهيباً رائعاً وحكم الدوق بأنه آية في الإبداع. ويغلب على ظنّي أن أحدهم أوحى إليه بأن عملية صبّه بالبرونز ستمنى بالفشل. أو لعلها كانت فكرته الخاصة. إلاّ أنه مع هذا كان يتردد الى منزلي أكثر مما إعتاد. وفي إحدى زياراته هذه قال لي:

- أرى يا بنڤنوتو ان صبّ التمثال بالبرونز لن يكتب له النجاح. فأصول الفن لا تسمح بذلك.

إحتججت على سموّه بشدّة وأجبت:

- ليس خفياً عني يا مولاي بأن سموك الأفخم لاتثق بي كثيراً. ويخيل اليّ أن مصدر هذا الشك هو ثقة بالغة منك بأولئك الذين دأبوا على إغتيابي وتلفيق الحكايات ضدي. أو لعلك غير واقف على حقيقة الأمر.

ماكدت أكمل عبارتي حتى هتف يقول:

- أنا لا أدّعي بالعلم حقاً. على اني أفهم المسألة خير فهم.

أجبت:

- أجل. بوصفك هاوياً لا بوصفك صانعاً ممارساً. فلو أن سموّك تتفهم الموضوع كما تعتقد انك فاهمه، لوضعت ثقتك بي بعد الدليل الواضح الذي قدمته من تمثالك النصفي الذي صببته. ذلك التمثال الكبير الذي أُرسل الى (إلبا). كما كان عليك أن تصدق قولي إثر قيامي بإصلاح (گانيميد) الجميل المرمريّ. وهو العمل الذي بذلت فيه أشق مجهود. اذ كان اسهل عليّ منه أن

(٨٧) قديسة عذراء ولدت في حدود (٢٨٣) في سيراكيوز الصقلية وإستشهدت في (٣٠٤) بعد تعذيب ومن ضمنه قلع باصرتيها. وعيدها يقع في الثالث عشر من كانون الأول. وفي السويد له مقام كبير وإحتفال خاص ويدعى عيد سانتا لوچيا.

أقوم بنحت التمثال برمته. كذلك كان عليك أن تؤمن بقولي لاسيما بعد نجاحي في صبّ (ميدوسا) الشاخصة الآن أمام سموّك. كان صبّ هذا الجزء من أشق العمليات وقد حققت به مالم يسبقني اليه أي أستاذ نابغة في هذا الفن المعقد الشبيه بأحبولة الشيطان. ألا أنظر يامولاي. كيف أعدت بناء المسبك بشكل يختلف إختلافاً تاماً عن أي مسبك آخر فأقمت فيه منفذين لمعدن البرونز. وهذه هي السبيل الوحيدة الممكنة لضمان النجاح في صبّ التمثال الصعب الكثير التعاريج والإنحاءات. وقد أصبت بغيتي بسبب بعد نظري وقدرتي الإبداعية، فليس بين الفنانين من يصدّق بأن مافعلته ممكن.
ولتتأكد أيضاً من هذا الذي سأقوله لك يامولاي، وهو السبب الوحيد الذي يُعزى اليه نجاحي في كلّ الأعمال الشاقة الهامة التي أنجزتها في فرنسا، إنه التشجيع العظيم الذي لقيته من الملك العالي القَدر فرنسوا بمنحه السخية وبالشكل الذي كان يعالج حاجتي الى العمال فقد جاءت أيام كنت أستخدم فيها أربعين عاملاً أقوم أنا نفسي بإختيارهم. وهذا الذي جعلني أنتج الكثير في الوقت القصير. وأنا أرجو منك الآن يامولاي أن تثق بقولي وتدعني أحصل على المساعدة التي أحتاجها، لأني عظيم الأمل بأن ما سأنجزه سيكون مدعاة لسرورك. أما إذا ثبط سموّك همّتي ورفض طلبي المساعدة التي أنا في حاجة إليها. فليس في وسعي تقديم نتائج حسنة لا أنا ولا غيري مهما كانت صفته.
أرغم الدوق نفسه على البقاء والإصغاء الى كلامي المنطقيّ. وكان يدير وجهه الى هذه الجهة آناً والى تلك آناً. أمّا أنا فقد دهمتني لجّة من اليأس وغرقت فيها وإعتصرت الآلام قلبي وأنا أتذكر تلك الظروف الممتازة التي عشتها في فرنسا.
قال الدوق فجأة:
- ألا أجبني يا بنڤنوتو كم تقدّر نجاحك في مثل هذا الرأس الجميل رأس ميدوسا بهذا الإرتفاع الذي يبدو ويد پرسيوس تمسك به؟
فأجبت في الحال:
- تلك هي المسألة يامولاي! فلو أن سموّك مطلّع على هذا الجانب من الفن كما قلت، فإن القلق لن يداخلك حول فشل سبك الرأس، بل سيكون منصبّاً على الرِجل اليمنى وهي في الأسفل بعيدة.
فإستدار الدوق مواجهاً بعض النبلاء المرافقين وقال وهو شبه غاضب:
- في إعتقادي انّ مايقوله هذا الرجل هو بدافع الغرور والتيه بإنكاره كلّ الحقائق.
ثم التفت اليّ حالاً وقد إرتسمت على وجهه ملامح هي أقرب الى الإزدراء والهزء، فأسرع الآخرون يقلّدونه فيها، ثم قال:
- إني على إستعداد لأصبر منصتاً الى هذه الحجج التي قد تجدها مقنعة لي.
قلت:
- سأدلي الآن بهذه الحجج المقنعة؛ بشكل سيدركها سموّك خير إدراك، أنت تعلم يامولاي طبيعة النار. فهي كما لايخفاك تتصاعد الى الأعلى ولهذا السبب خذها وعداً مني بأن رأس ميدوسا

سيسبك جيداً. وبما أن النار لاتتسرب الى أسفل فسيكون واجباً عليّ أن أدفع بهما دفعاً الى تحت بمسافة ستة كوبيتات (١٠٨ إنجات) بوسائل فنية. وإستناداً الى هذا الدليل المفحم لي أن أقول لسموّك بأن (القدم) لن تظهر سليمة وسيتعيّن عليّ إعادة صبّها وهي عملية سهلة جداً.

قال الدوق:

– عال! لماذا إذن لا تتخذ التدابير لضمان صبّ القدم بالشكل الذي تخرجها فيه سليمة كما هو شأنك بالرأس حسب قولك؟

أجبتُ:

– ان هذا يتطلب منّي بناء مسبك أكبر بكثير من مسبكي الحالي. ثم بناء قناة فيه سعتها تزيد عن غلظ ساقي. وعندئذ سيساعدني ثقل المعدن الذائب بالحرارة على إمراره الى أسفل. وفي الحال الحاضر تجد القناة منحدرة الى أسفل بمسافة الكوبيتات الستة التي نوهت بها. الى أن تبلغ القدمين. لكنها لاتزيد عن إصبعين سمكاً، وإستبدالها لايسوى النفقات التي نتكبدها في إستبدالها بسبب قدرتي التامة على إصلاح العيوب. ولكن النار كما اتوقع ستصعد الى الأعلى تبعاً لطبيعتها عندما يمتليء القالب بأكثر من النصف. وسيخرج رأس (ميدوسا) ورأس (پرسيوس) معاً كاملين لاعيب فيهما. ولك أن تطمئن من هذا.

بعد أن عرضت هذه الحجج المفحمة وغيرها كثير مما يشقّ عليّ تدوينه هنا. غادر الدوق وهو يهزّ رأسه محتاراً.

عادت اليّ ثقتي بنفسي بعد أن تُركت وحيداً ونفضتُ عنيّ تلك الأفكار السوداء التي دأبت على تعذيبي بين آن وآخر وكثيراً ما أسلمتني الى الندم الباكي لتركي فرنسا وقدومي الى مسقط رأسي فلورنسا، وإن كان سبب ذلك رسالة الخير والإحسان المترتبة في عنقي لبنات أختي الستّ. وها أني أدرك الآن بأنها علّة كلّ مصائبي. لكني عزّيت نفسي معللاً إياها بالرخاء والرفاء وزوال كلّ متاعبي بعد إكمالي تمثال (پرسيوس). فباشرت المرحلة الأخيرة بقوى جديدة وبكلّ ما أملك من طاقة جسمية ومالية (ولم يكن قد بقي عندي الكثير). فإبتعت كميات من الخشب أُحتطبت لي من غابة الصنوبر في (سيرّاتوري Serratori) القريبة من (مونت لوپو Mont Lupo) وفي أثناء إنتظاري لها قمت بإكساء (پوسيوس) بالصلصال الذي كنت قد أعددته له قبل أشهر لأضمن نضجه التام. وبعد إلباسه حلّته الطينية كما هو شائع القول، سلّحته تسليحاً دقيقاً وأحطته بدعائم حديدية وبدأت أزيل الشمع منه فوق نارٍ هادئة، فكان يسيل من منافذ الهواء التي عملتها فيه. إذ كلّما زاد عددها زاد القلب إمتلاءً بعد أن إنتهيت من إستخلاص الشمع. بنيت حول (پرسيوس) مصهراً على شكل قمع من الآجرّ المرصوف واحدةً فوق أخرى. تاركاً فتحات عديدة لتسهيل خروج النار. ثم بدأت أكدّس الخشب بكميات قليلة تاركاً النار متقدةً مدة يومين وليلتين دون إنقطاع.

بعد أن تخلصت من الشمع وطبخت القالب طبخاً جيداً. بدأت فوراً في حفر النقرة التي سيُدفن فيها. مطبقاً جميع القواعد التي يتطلبها فنيّ. وبعد فراغي من ذلك جئت الى القالب فرفعته الى

الأعلى بكلّ حيطة بواسطة بكرات وحبال قوّية، فتدلى على مسافة ذراع واحد فوق المسبك. وبهذا صار معلّقاً فوق مركز النقرة مثلما قدّرت له. ثم باشرت في خفضه رويداً رويداً الى داخل المسبك. ورتبته في الوضع الصحيح بغاية من الدقة. بعد أن إنتهيت من هذا العمل الدقيق بدأت بركم التراب الذي كنت إختزنته من النقرة. وبعد أن أهلت التراب طبقةً طبقةً تركت عدداً من المنافذ الهوائية بدسّ أنابيب فخارية صغيرة من النوع الذي يستعمل لإمتراء الماء وماشاكل من الأغراض. وعندما وجدت كلّ شيء قد تمّ وفق المرام بخصوص التغطية ووضع الأنابيب في أماكنها. وتفهم العمال طريقتي- وهي تختلف جداً عما إعتاده زملائي في الصنعة- شعرت بالثقة من إمكان الإعتماد على ما إتخذت من التدابير. فأوليت المسبك إهتمامي: ملأته بكتل عديدة ضخمة من النحاس وغيرها من فضلات البرونز ورتبت وضعها بحسب مباديء الصناعة وقواعدها، أعني مكدّسة بشكل يجعل النار تتخللها وتسخّنها وتذيبها بأسرع مايمكن. ثم أمرت بإيقاد الأتون.

كدّست قطع الصنوبر. وبفضل الصمغ اللزج المتحلّب من الخشب وإتقان مسبكي، سار كلّ شيء وفق المرام. فصرت أتنقل من موضع الى آخر مجهداً نفسي الى حدّ الإرهاق مرغماً إياها على الإستمرار والمتابعة، زيادة على ماواجهني من متاعب وإرهاصات سابقة.

سرت النار في المصنع نفسه وتملّكنا الخوف العظيم من سقوط سقفه علينا، في أثناء ذلك أخذ المسبك يبرد بسبب المطر والريح اللذين إندفعا من الحديقة. كافحت هذه العوارض المزعجة عدّة ساعات. إلاّ ان الإجهاد كان اكثر مما يحتمله جسمي القوي. فإعترتني فجأة نوبة من الحمّى أقسى وأشدّ نوبة متصورة. فلجأت الى الفراش رغم أنفي.

ببعدي عن موقع العمل وبالقلق الممضّ الذي إعتراني لم أر مندوحةً من الإلقاء بتعليماتي الى معاونيّ العشرة او اكثر ومنهم سبّاكو البرونز ومنهم الصنّاع المهرة، ومنهم الشغيلة العاديون فضلاً عن عمال آخرين في مصنعي. ومن هذه الفئة الأخيرة أحدهم (برناردينو مانيلليني الموجلّلي) الذي تدرب عندي بضع سنوات فقد زوّدته بتعليمات خاصة إذ قلت له:

- الآن أعرني إنتباهك ياعزيزي برناردينو. نفّذ بالضبط ماكنت قد لاحظتني أقوم به وأسرع لأن المعدن سيكون جاهزاً بعد قليل، لايمكنك أن ترتكب خطأ فهؤلاء الرجال الحاذقون سيعجّلون بالقنوات وانت نفسك ستكون قادراً بسهولة على دسّ السدادتين بهذه الخطّافات. وعندها سيمتليء القالب على أحسن وجه.

أمّا أنا فما شعرت بوطأة المرض كماأشعر الآن. لم أشك في ان هذه الحمى ستقضي عليّ في ساعات قلائل. ثم إني تركتهم وإرتميت على فراشي وأنا أشعر ببؤس لامزيد عليه.

ما أن إستلقيت على فراشي حتى أمرت أهل بيتي بإعداد طعام وشراب كافيين لكلّ من في المصنع. وزدت قائلاً إني سألفظ أنفاسي الأخيرة حتماً ولن يطرل الأمر بي حتى الغد. فحاولوا تشجيعي مؤكدين بأن شدّتي لن تطول وما أحسّ به إنما هو نتيجة الإرهاق المتأتي من العمل المتواصل.

وقضيت ساعتين أصارع خلالهما الحمى التي كانت تتفاقم وأنا أصرخ:
- اني مشرف على الموت.
كان لديَّ مدبّرة بيت محبوبة جداً لانظير لها في الدنيا تدعى (فيوري) وهي من (كاستيل دل ريو). راحت هذه المرأة تؤنبني وتلومني لما أشعر به من بؤس وغمّ. وكانت تقوم بتنفيذ أوامري بإخلاص وتفانٍ لامزيد عليهما. وقد أدركت شدّة مرضي، ومقدار هبوط معنوياتي، فلم تستطع، مع شجاعتها الفائقة، حبس دموعها. إلا أنها حاولت جهدها إخفاءها عنيّ.
لمحت وأنا أقاسي هذه الآلام - شخصاً يتجه الى غرفتي وكان جسمه ملتوياً مثل حرف (S) الكبير. بدء هذا الشخص يئن ويتفجع بصوت يقطر كآبة وكأنه كاهن يواسي محكوماً بالموت قبل تنفيذ الحكم فيه:
- واه لك يابنڤنوتو المسكين. كلّ شيء تلف ولم يبق أي أمل.
بسماعي هذا المنكود. أطلقت صيحةً راعدة رجّع صداها أبعد كوكب. ثم قفزت تاركاً فراشي وتناولت ثيابي وإرتديتها أما الخدم والمساعدون وجميع من صعد الى فوق لمعاونتي فلم يجدوا في إنتظارهم غير اللكمات والرفسات والركلات وكشّرت في أوجههم جميعاً هائجاً صارخاً:
- أيها الخونة الحسّاد! إنها لخيانة متقصّدة. قسماً بالله انّي سأميط اللثام عنها وأنفذ الى أعماقها. وسأترك قبل موتي بيانات وحقائق عن نفسي سيذهل لها العالم بأسره!
ما أن أكملت إرتداء ثيابي حتى نزلت الى المصنع وأنا على أسوأ حال. هناك وجدت الرجال الذين كنت قد تركتهم مستبشرين مرتفعي المعنويات. وقد وقفوا في مواضعهم مسمّرين تلوح على أوجههم علائم الحيرة والإنكسار، قلت:
- هيا بنا الان وأصغوا اليّ. أرى إنكم عجزتم عن تطبيق تعليماتي التي زودتكم بها، فأطيعوني وانا الآن معكم لإدارة دفة العمل بنفسي، لاأريد أي إعتراض فنحن بحاجة الى عمل لا الى نصح وإرشاد.
وعلى إثر أقوالي هتف أحدهم وهو (أليساندرو لاستريكاتي Alessandro Lastricatti):
- قَدْكَ يا بنڤنوتو ولاتتسرع. إن ماتطمح الى إنجازه لا قابلية للفن به فهو بكلّ بساطة ضرب من المحال.
فإلتفتُّ اليه هائجاً وعيناي تقدحان بشواظ من نار ألجأتا الجميع الى إطلاق هتاف موحّد:
- طيب، ألق إلينا بأوامرك وسنطيعك في كلّ شيء مادام فينا نَفَس يتردد.
وأظنهم ما أظهروا هذا الولاء إلاّ لأنهم كانوا يتوقعون أن أقع على الأرض ميتاً في أية دقيقة.
باشرت حالاً بفحص المسبك فوجدت المعدن كلّه قد تصلّب وتقطّع أو كما يقولون: قد تكتّل. فأمرت عاملين بأن يقصدا بيت (كاپريتا) صاحب حانوت القصابة، وجلب قدر حمل من خشب البلوط الفتيّ الذي تمّ يبسه خلال سنة أو أكثر. فقدمته لي زوجه (جنيڤرا) بطيبة خاطر. ولما جيء بأول دفعة منه بدأت بتلقيمه المسبك من خلال المدخل. وبهذه المناسبة يجدر بي أن أذكر إن البلوط الذي إستخدمته

كان ذا نارٍ شديدة تفوق نار أي نوع آخر من الخشب. ولذا فُضِّل إستعمال خشب الصنوبر أو خشب (الحَرَج Alder)[٨٨] الأبطأ إحتراقاً لأعمال معينة بصورة عامة، كصبّ المدافع وما أشبه. وليتك أيها القاريء شاهدت تلك النار الجهنمية وهي تلعق المعدن بألسنتها اللاهبة وكيف بدأ يتوهج ويسطع منصهراً.

في هذه اللحظة عجّلت الى القنوات كما أرسلت رجالاً الى سطح المصنع لمكافحة النار التي إشتد سعيرها بسبب تعاظم الحرارة في المسبك بالأسفل. وأخيراً أحضرت ألواحاً وأبسطة وغيرها من الستائر وجعلتها بمثابة حاجز للمطر الذي كان يندفع الى الداخل من الحديقة. وما أن تمّت سيطرتي على الفوضى والإضطراب العظيمين وإستقام الأمر حتى شرعت بإطلاق أوامري كالرعد القاصف:

- أنقلوا هذا الى هنا، خذوا ذاك الى هناك!

وعندما بدأ المعدن بالإنصهار، وشاهدته مجموعة من المساعدين وهو يتسرّب. دبّت فيهم الحماسة وملكتهم الرغبة في التعاون فغدا الواحد منهم يعمل عمل ثلاثة. ثم أشرت الى أحدهم ليأتي بكتلة من الـ(پيوتر)[٨٩] تزن حوالي ستين پاوناً، فدفعت بها الى المسبك لتنصهر مع مافيه من المعدن المتكتل. وبهذه الوسيلة وبتكديس الوقود وتحريكه بالقضب الحديدية والمحارك، مالبث البرونز أن إنصهر- وعندما وجدت بأني أفلحتُ في نفخ الحياة بجثة الميت- رغم اليأس الذي إستولى على مساعديّ الجهلة، إنبعث نشاطي من جديد، فنسيت الحمى التي أشاعت الخوف من الموت في أوصالي.

في هذه المرحلة سُمع دوي إنفجار فجائي وتوهُج ساطع حتى لكأن صاعقة إنقضّت في وسطنا. وسادنا الرعب جميعاً غير مستثنٍ نفسي. ثم لما خمدت النار الوهّاجة وتلاشت أصداء الإنفجار. راح بعض يبحلق في وجه بعض، ثم تطلعنا الى مصدر الإنفجار فإذا بغطاء المسبك قد تفجّر وإنفتح البرونز الذائب ينصب خارجاً. فأسرعت بفتح منافذ القالب وفي الوقت ذاته دفعت بالسدادتين الى الداخل. ثم إني وجدت المعدن المنصهر لايجري بالسهولة التي يجب أن تكون، فأدركت أن الپيوتر قد نفد في تلك الحرارة الفائقة. فأمرت بإحضار كلّ مافي بيتي من الصحاف والأوعية والأواني وقد بلغ عددها المائتين تقريباً ووضعتها واحداً بعد الآخر أمام القنوات. وقذفت ببعضها الى أعماق المسبك. وأثار مظهر إنصهار البرونز السهل وإمتلاء القالب به جميع الموجودين وأخذوا يتدافعون فيرتمي بعضهم على بعض متسابقين لتلبية أوامري وهم ضاحكون مستبشرون، وكنت خلال هذا أتنقل من هنا الى هناك بسرعة مصدّراً الأوامر وباذلاً المساعدة لمن يريدها وأنا أهتف:

- أيها الرب الإله الذي بُعثت حياً من عالم الأموات وصعدت الى السماء بقدرتك الصمدانيّة، إني أسأل العون منك.

بعد فترة إمتلأ القالب بصورة كاملة.

(٨٨) نوع من الشجر غير مثمر ينمو في المناطق الباردة. وهو مقاوم للماء إذ لايتسرّب اليه. ولذا أستُخدم لعمل المضخات ودواليب الماء. ولحاؤه بنيّ اللون يستخرج منه صمغ شائع.

(٨٩) أشابة معدنية مقومها الأساسي معدن القصدير ومنه تصنع الأواني المعدنية في الغالب.

عندئذ توجهت الى قصعة الصلصة التي كانت موضوعة فوق مقعد أو كرسيّ، فأكلت منها بشهية وشربت وشاركني الجميع في الطعام. ثم آويت الى الفراش وأنا بكمال الصحة و السعادة. وكان الوقت يشير الى مرور ساعتين على الفجر. فنمت نومةً هادئة وكأني لم أصب بأي عارض مرضي. وقامت خادمتي الأمينة دون توصيةٍ مني بتهيئة ديك مسمّن. ثم أقبلت بعد أن إستيقظت في حدود الظهيرة وهي تقول باسمة:

- اهذا هو الرجل الذي ظنّ انه مشرف على الموت؟ يخيّل لي ان الكلمات والرفسات التي كلتها لنا بالجملة في ثورتك الجامحة وهياجك الشيطاني قد اشاعت الرعب في الحمى. فخوفاً من ان تنال مانلنا من الضرب، هربت لاتلوي!

انقشعت غمامة القلق عن خدمي ولم يعد عملهم يثقل عليهم فإنتشروا يريدون التعويض عن الأواني والصحاف المعدنية التي صهرتها. وعادوا بعدد مساوٍ لها من الأوعية الفخارية ثم تناولنا وجبة غداء بهناءة وراحة بال وشهية عظيمة.

بعد فراغنا من الطعام أقبل كلّ مساهم ومساعد في العمل لزيارتي وتمت فرحتنا بإجتماعنا، ورفعوا الشكر الى الله لما جرى قائلين إنهم شاهدوا وتعلموا مسائل إعتبرها الأساتذة الآخرون ضرباً من المحال. وبعدها مددت يدي الى صرّة مالي وسددت لهم أجورهم فخرجوا والكلّ راضٍ.

كان عدوّي اللدود وكيل خَرج الدوق (پيير فرانشسكو) حريصاً دؤوباً على تسقّط أنباء عملية السبك بكلّ مراحلها ونتائجها. وحدّثه بما جرى الشخصان اللذان شككت كثيراً في أنهما قد تسببا في تكتّل المعدن. فقد قالا له:

- واضح ان بنڤنوتو ليس من طينة البشر، بل هو عفريت من جبابرة العفاريت. فقد حقق المستحيل مع أشياء أخرى تُعجز معشر الجنّ ويقف أمامها حائراً.

وبالغا كثيراً في وصف ماجرى، ربما على سبيل الإعتذار لفشل مسعاهما. وأسرع وكيل الخَرج فكتب للدوق كلّ ما أُنهي اليه حول الموضوع. وكان سموّه في (پيزا)- وزاد فأضفى على الحكاية الكثير من الخيال، ففاق بها الشكل الذي نُقلت به اليه.

تركت التمثال المصبوب يومين ليبرد. ثم بدأت أكشف عنه ببطء شديد وبكلّ أناةٍ. كان رأس (ميدوسا) أوّل ماوقع على بصري منه وقد خرج كاملاً بديعاً والفضل يعود الى منافذ التهوية كما ذكرت للدوق بخصوص طبيعة النار المتصاعدة. ثم بدأت الكشف عن بقية الأجزاء فجئت الى الرأس الثاني رأس (پرسيوس) وكان كاملاً لاتشوبه شائبة. وهو المفاجأة بعينها اذ كما يلاحظ انه ادنى بكثير من رأس (ميدوسا). كنت قد جلعت فتحات القالب فوق رأس (پرسيوس) وعلى محاذاة الكتفين. فوجدت ان كلّ البرونز الذي كان في المسبك قد إستوعبه رأس (پرسيوس) وانه لمما يبعث الدهشة ان لايبقى أثر للمعدن في القنوات في الوقت الذي لم يعتور التمثال اي نقصان. انه لأمر مذهل حقاً حتى ليبدو وكأنه معجزة حققها الله لي وكلأتها عنايته.

واصلت الكشف عن بقية الأجزاء وأنا سعيد منشرح الصدر فوجدتها كاملة لاعيب فيها دون

إستثناء. الى أن جئت الى القدم اليمنى التي يقف عليها التمثال، فوجدت الكعب قد خرج كاملاً وتقدمت قليلاً فلم أجد فيه عيباً أو نقصاناً فداخلني السرور من جهة وشبه سخط من جهة أخرى لأني تكهنت للدوق بأن القدم قد لاتخرج كاملة. لكن تبين لي بعد فراغي من الكشط أن أصابع القدم ناقصة بل هناك نقص أيضاً فيما يلي الأصل اعني ان الجزء الناقص هو أقل من نصف القدم. ولم يكن يقتضي إصلاح ذلك مني عملاً كبيراً. سررت بهذه النتيجة لأنها تثبت للدوق وقوفي على أسرار حرفتي. وإذا خرج من القدم مقدار أكبر بكثير مما توقعت. فالسبب (وبادخالي في الحساب كلّ ما إعترض من عقبات)، يعود الى ان المعدن قد سخن أكثر مما يجب وكان عليّ في الوقت نفسه أن أساعده بالقصدير بالطريقة التي وصفتها وبأواني (الپيوتر) وهو أمرٌ لم يُقدم عليه أحدٌ من قبل.

بعد أن ظفرت بهذا النجاح، شددت الرحال الى (پيزا) فوراً لأقابل الدوق. رحّب بي بحرارة غير إعتيادية وحذت الدوقة حذوه. ومع إن وكيلهما سبقني بالتفاصيل الكاملة فقد حلا لسموّهما أن يسمعا القصة من لساني إذ ستكون أدعى الى الإستمتاع والإثارة. ولما وصلت في حديثي الى قدم (پرسيوس) وقلت إنها خرجت ناقصة، أظهر الدوق إستغراباً وتعجباً لاحدود لهما. لأنّ هذا ما توقعته. فراح يصف للدوقة كيف كنت قد تنبأت له به.

عندما إطمأنت نفسي باللطف والحفاوة التي استقبلت بهما طلبت من الدوق ان يأذن لي بالسفر الى روما. فأجازني بكلّ رقة وأوصياني بالعودة السريعة للفراغ من (پرسيوس). كما إنه زودني بكتب توصية لسفيره هناك السيد (إڤراردو سيرّستوري Averardo Serristori) وكان ذلك في غضون السنوات الأولى لجلوس (يوليوس دي مونتي Julius di Monti)[٩٠] على كرسي الپاپوية.

وقبيل رحيلي زوّدت عمالي بتعليمات حول مواصلة العمل على ضوء المباديء والقواعد التي تلقوها منيّ. أما سبب سفري فهو كالآتي:

كنت قد نحتُّ تمثالاً نصفياً بالحجم الطبيعي لـ(بندو دا أنطونيو آلتوڤيتي Bindo d'Antonio Altoviti) وأرسلته اليه وهو في روما، فوضعه في غرفة المكتبة التي كانت مؤثثة تأثيثاً أنيقاً وقد حفلت بالقطع الأثرية الفنيّة وغيرها من التحف البديعة. إلا أن الغرفة لم تكن مناسبة لوضع المنحوتات أو الرسوم واللوحات لأن نوافذها على مستوى أوطأ من تلك النفائس، فكانت إضاءتها سيئة ما يفسد التأثير العظيم الذي قد تخلفه لو سقط عليها النور الكافي.

وفي ذات يوم اتفق ان (بندو) المذكور كان واقفاً على عتبة داره فمرّ به (ميكالنجلو بوناروتي) فرجا منه ان يشرّفه بالدخول ومشاهدة غرفة المكتبة، وما ان إحتوته حتى هتف يقول متسائلاً:

– من هو هذا الفنان الذي صوّرك بمثل هذه الدرجة من الدقة وبهذا الأسلوب الجذّاب؟ ألا ثِق أن تمثالك النصفي هذا يعجبني قدر ماتعجبني هذه التحف الأثرية بل وأكثر، وإن كنت أرى بينها قطعاً ممتازة. لو كانت شبابيكك هذه فوق مستواها لا تحتها فإن التأثير سيتضاعف جداً. وسيحتل تمثالك النصفي موضع الصدارة بين كلّ هذه التحف الجميلة.

(٩٠) هو يوليوس الثالث (١٤٨٧–١٥٥٥) الذي نصب پاپا في (١٥٥٠) وقام بدور هام في مجمع (ترنت) الديني.

ما أن غادر (ميكالنجلو) الدار حتى قام بكتابة رسالة ساحرة اليّ وقد جاء فيها مايلي:

"أيها العزيز بنڤنوتو. لقد سلّمت منذ سنوات عدة بأنك أنبغ الصاغة الذين عرفناهم على الإطلاق. وإني سأسلّم الآن بأنك لاتقلّ نبوغاً عن هذا في فنّ النحت. وعليّ أن أعلمك بأن السيد (بندو آلتوڤيتي) أطلعني على تمثاله النصفي وأنبأني بأنه من صنعك. فأعجبت به كثيراً لكن من الإساءة العظيمة ان يوضع في مكان قليل النور ولو سقط عليه نور كافٍ لبدا كما يجب أن تبدو أي صناعة بديعة كصناعته".

وحفلت الرسالة بكثير من مشاعر الودّ والمجاملة. فأطلعت عليها الدوق قبل سفري الى روما. فقرأها قراءة متمعن وقال لي:

- أي بنڤنوتو! إن كتبت له وأثرت فيه الرغبة للقدوم الى فلورنسا فإني سأعينه عضواً في مجلس الثمانية والأربعين[٩١].

فكتبت له رسالة حافلة بالمودة والتعظيم. وفيها وعدته نيابةً عن الدوق بمائة ضعف مما خوّلني التعهد به ودفعاً لأي إلتباس في المستقبل أطلعت الدوق على رسالتي قبل ختمها وقلت لسموه الأفخم:

- أخشى أن أكون قد منّيته الكثير يامولاي.

فأجاب قائلاً:

- كلا. إنه يستأهل أكثر مما وعدته. وإني بالتأكيد سأحققه له.

لم يردّ (ميكالنجلو) على رسالتي. وشعرت بغضب الدوق الشديد عليه.

بوصولي روما، حللت ضيفاً على (بندو آلتوڤيتي) وبادر هذا الى نفض الحكاية. كيف إنه قام بإراءة (ميكالنجلو) التمثال وكيف أثنى عليه. ثم بحثنا المسألة التي قصدته فيها بتفصيل.

كنت قد أودعت لديه ألفاً ومائتي كراون ذهبيّ. وهي تؤلف جزءً من خمسة آلاف وكان قد أقرض الدوق أربعة آلاف منها تعود له، وحصتي من الدين كانت بإسمه. وأنا من جهتي كنت قد تسلّمت الفائدة عند إستحقاقها[٩٢]، هذه العلاقة كانت السبب في قيامي بعمل تمثاله النصفي. فبعد أن شاهد (بندو) النموذج الشمعي، أرسل لي خمسين كراوناً عن طريق المدعو (السيد گويانو باكاللّي Ser Guiliano Paccalli) أحد وكلائه القانونيين الذين يساكنونه، لكني لم أشأ قبول المال ورددته اليه صحبة رسوله نفسه. بعد هذا قلت له اني أقنع منه بإستثماره مالي لأجني منه بعض الفائدة. لكني شعرت الآن ببروده ونفرته تجاهي، اذ بدلاً من أن يستقبلني بحرارة كما كان يفعل قبلاً- شابَ مسلكه الضيق والتبرّم. ومع إنه أنزلني داره إلاّ أنه لم يعاملني بمودّة بل ظهر منه جفاف. وعلى أية حال فقد سوّينا

(٩١) هو أعلى المجالس الثلاثة في فلورنسا التي تشارك دوق فلورنسا في الحكم.

(٩٢) لاشك أن چلليني يعني أحد أمرين: إمّا ان الخمسة آلاف والمائتي كراون قد أقرضت للدوق. وإمّا أن ثلاثة آلاف وثمانمائة من أصل الخمسة آلاف كراون هي عائدة لآلتوڤيتي. على أن هناك صحيفة شطبت من المخطوطة تؤيد أن حصّة چلليني كانت ألفاً ومائتين. [حاشية بيانكي].

المسألة بشكل مقتضب: تنازلت عن أجرى في العمل وقبلت بثمن البرونز الذي إستخدمته له على أن يبقى (بندو) محتفظاً بمالي طوال حياتي بفائدة قدرها خمس عشرة بالمائة.

قمت أولاً بالتوجه الى الپاپا وتقبيل قدميه. فيما كنت أحادثه وصل (أڤيراردو سرّستوري) سفير دوقنا. وكنت قد أدليت للپاپا بإقتراحات معينة ظننت أنها ستحظى بموافقته بسهولة وستكون نتيجتها الطيبة عودتي الى روما وتخلصي من متاعبي وعقباتي في فلورنسا. لكني علمت فيما بعد أن السفير قد أحبط تدبيري وعمل ضد مصلحتي.

ثم إني قصدت (ميكالنجلو) وأعدت عليه ماكتبته له من فلورنسا نيابةً عن الدوق. فردّ قائلاً، إنه مكلف الآن ببناء كنيسة القديس بطرس. ولهذا يتعذر عليه القدوم. قلت له: بعد أن تمّت الموافقة على التصاميم التي عملها للبناء فبإمكانه أن يترك مساعده (أوربينو) للإشراف وتطبيق تعليماته بالضبط. وأضفت من عندي نيابةً عن الدوق كثيراً من الوعود.

حدّق (ميكالنجلو) فيّ تحديقة شديدة وقال وقد إرتسمت على وجهه إبتسامة ماكرة:

- وكم أنت راض من الدوق؟

قلت له إني راضٍ تماماً وانه يعاملني معاملة جيدة. إلاّ أنه أبدى لي ما أكد لي بأنه مطلّع على علّة مصاعبي. ثم اعاد القول بأنه لايستطيع ترك روما. فأجبت انّ خير مايفعل هو أن يعود الى مسقط رأسه وعلى رأسها حاكم عادل جداً يحبّ النبغاء حبّ عشق ولايبذّه في ذلك أيّ أمير ولدته أم.

ذكرت قبلاً إسم صبي مساعدٍ له (اوربينو) وكان قضى بضع سنوات في خدمته كمساعد عموميّ لايختص بفرع معين. من الواضح أن هذا الخلفة لم يكن على شيء من الإطلاع في أمور الفن. فبعد أن أشبعت (ميكالنجلو) حججاً ومنطقاً بحيث بدا محاذراً في جوابه، إلتفت فجأة الى مساعده (اوربينو) هذا التفاتة من يطلب منه رأياً. فصاح (اوربينو) فجأة بأسلوبه الفظ الغليظ وبصوت شبيه بصوت الرعد:

- لن افترق عن خليلي (ميكالنجلو) حتى يواري القبر أحدنا.

لم يسعني غير الضحك على هذه العبارة السخيفة. ولم يساعفني اللسان في قول آخر. فأدرت وجهي دون أن أضيف كلمة واحدة.

أسأت تسوية أموري مع (بندو آلتوڤيتي) فقد خرجت صفر اليدين من تمثالي البرونزي، وقبلت إيداع نقوي عنده مدى حياتي. وقد أزال هذا كلّ شبهة لديّ في معدن معشر التجار وقيمتهم الحقيقية كبشر. وقفلت راجعاً وانا في أسوأ حالة نفسية. وما ان بلغتها حتى قصدت قصر الدوق زائراً ولم يكن سموّه هناك، فقد رحل الى (كاستيللو) الواقعة ماوراء (پونتي آريڤْري). لكني إلتقيت بوكيل الدار (پيير فرانشسكو ريچيو). ومان ان دنوت لتحيته كالعادة حتى إبتدرني بدهشة قائلاً:

- آه! أعدت؟

ثم وبعد علائم الدهشة نفسها ضرب كفّاً بكف وأضاف:

- الدوق في (كاستيللو).

ثم دار وأدبر مسرعاً . ولم أدر ماحدا بهذا المخبول الى مثل هذا التصرف!

توجهت فوراً الى (كاستيللو) وولجت الحديقة حيث الدوق ورأيته من بعيد. وعندما فطن الى وجودي صدرت منه حركة تنمّ عن الإستغراب مما أشعرني بأنه يريدني أن أنصرف. وكنت أمنّي النفس بأن صاحب السموّ سيلقاني بعين اللطف السابق بل وبأكثر مما أظهره لي عند رحيلي. فلما وجدت هذا السلوك الشاذ، قفلت راجعاً الى فلورنسا وأنا في أقصى درجة من الغمّ. وإنكببت على العمل في التمثال بغية إكماله بأسرع مايمكن. لم أتوصل الى سبب هذا التغيّر على كلّ حال وبعد أن لاحظت تغيّراً مماثلاً في سلوك (سفورزا) وغيره من خلصاء الدوق، لم أتردد في سؤال هذا الأخير عمّا يعني هذا. فقال وهو يبتسم رداً على سؤالي:

- بنڤنوتو! حسبك ان تحافظ على إستقامتك ولايقلقك أي شيء.

بعد أيام قلائل اتيحت لي فرصة الكلام مع الدوق. فحيّاني تحية عرضية وسألني عمّا حصل في روما. وحدثته بأفضل ماوسعني وسردت له حكاية تمثال (بندو آلتوڤيتي) النصفي وماتلا ذلك. ووجدته يصغي بإنتباه شديد، فزدت على ماسبق حكاية (ميكالنجلو بوناروتي) بتفصيل، وبدا عليه بعض إنزعاج. ولما بلغت الحكاية مقولة مساعده (اورينو) حول مواراة أحدهما التراب انفجر مقهقهاً ثم قال:

- إنما هو الخاسر.

وإنصرفت.

لاشبهة في أن وكيل الدار (سر پيير فرانشسكو) قد حاول الإيقاع بي عند الدوق ولم يفلح. لأن الله الذي يحبّ الصدق بسط عليّ ظلّ حمايته هنا أيضاً كما كان يحميني دوماً من المخاطر المهلكة سائر حياتي واني لآمل أن أظل متمتعاً بحمايته الى آخر أيامي مهما حفلت بالمصاعب والمتاعب. لقد زادني هذا عزماً على المضي قدماً، معتمداً على حوله وقوته تعالى غير خائف من تنكّر الحظ أو تقلّب أحوالي شريطة أن أبقى رافلاً في نعمائه.

والآن يتحتم عليّ أيها القاريء العزيز أن أطلعك على أقسى ضربة من ضربات الحظ السيء لحقت بي. كنت أواظب على عملي متفرغاً له تمام التفرغ. واعتدت قضاء أمسياتي في خزانة الثياب بقصر الدوق أعاون الصائغين اللذين كانا في في خدمة سموّه المبجّل. وكان معظم أعمالهما يرتكز على نماذجي وتصاميمي وقد وجدت الدوق يجني لذّته الكبرى في مراقبتي وأنا أشتغل وفي مبادلتي الحديث أثناء ذلك. ولذلك زيّن لي أن أغشى القصر أحياناً أثناء النهار. وإتفق مرّة اني كنت في خزانة الثياب واقبل الدوق كالعادة وقد حفّ به الخدم عندما علِم بوجودي وبدء حال وصوله يبادلني الأحاديث في مواضيع مختلفة لطيفة وكنت أجيبه بما يقع في نفسه موقعاً حسناً، فزاد لطفاً على كلّ ما أظهره لي في السابق.

ثم أقبل أحد أمناء سره فجأة وهمس في أذنه بشيء. لابد وأن ما جاء لأجله كان ذا خطر. اذ نهض